الفكر المادي ومدارسه

نظرية التطور - الوجودية

" دراسة تحليلية نقدية "

بقلم
الأستاذ الدكتور
محمد رشاد عبد العزيز دهمش
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدسوق - سابقًا

الطبعة الثانية
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

مقدمة

سيطر الفكرى المادى بأرديته السوداء علـــي الأفكـــار الأولى لفلاسفة اليونــــان و غــيرهم منــذ أن هتف "ديمقريطس" بأنه لا يوجد فى الحياة غير المــــادة و أن المادة هى كل شئ منها خلق الإنسان و منها خلق الكون و منها خلقت الآلهة، و لقد انطلقت الأفكار المادية التــى قال بها فلاسفة اليونان و تبعهم فى هذا الطريق فلاســفة الإغريق – إلى كثير من جنبات العالم و سيطرت فترة طويلة من الزمان على الفكر الإنسانى حتى وصل إلـــى الجزيرة العربية: و هاهو القرآن الكريم كتاب الله الـذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه: يوضح هــذه الحقيقة و يبين أن فريقاً من عرب الجاهليـــة كــانوا لا يؤمنون إلا بالماديات (و قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيـــا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر).

بل إن المادية تسلك إلى كثير من فلاســـفة الغــرب و الشرق معاً، فهاهو "كارل ماركس" يقول معـــبراً عــن الفكر الشيوعى (لا إله و الحياة مادة).

و لا شك أن الأفكار المادية تنكر المادية تنكـــر وجـــود الخالق جل جلاله و ترجع المخلوقات و الكون كله إلـــى المادة التى لا تفنى و التى تتسم بالقدم و الأزلية عندهم.

و سوف نتحدث عن تطور هذه الأفكار الماديـــة التـــى نشأت كما قيل من عهد "طاليس" قبل الميلاد و نوضـــح أثرها فى أفكار الغرب و الشرق معاً ثم نبين تهافتـــها و تفنيد أباطيلها.

هذا و الله ولى التوفيق

دكتور/محمد رشاد دهمش

اليونان و المادية

ديمقريطس و المذهب الذرى

لا شك فيه أن "ديمقريطس" من أهم الشخصيات العظيمة فى تاريخ الحضارة اليونانية و الفكر اليونـــانى حيــث استطاع بفكره المتميز أن يضع المذهب الذرى و لـــذا فقد قال عنه "زلر" إنه يفوق كل من سبقه و من عاصره من الفلاسفة فى اتساع علمه و هو يفضل معظم هـؤلاء و أولئك بحدة تفكيره و سلامة منطقه[1].

أسس المذهب الذرى

لقد كانت الأفكار اليونانية تدور فى محور المادة الأولى التى منها نشأ الكون ثم وهل وجدت المادة هـــذه مــن نفسها أو بفعل شئ خارج عنها، و لقد ذهب "طـــاليس" الذى يعده بعض المفكرين بأنه صاحب أول فكر يونانى منظم إلى أنه الماء هو أصل الأشياء و أنه المادة التـــى نشأ منها كل شئ و لذا فـــإن "طـــاليس" كمـــا يذهـــب

---

[1] تاريخ الفلسفة الغربية ص.١١٢ "برتراند راسل".

المفكرون إلا أنه كان فيلسوفاً مادياً أو على الأقل هـــو الذى بدأ هذا الفكر المادى.

تابع المسيرة تلميذ "طاليس" الفيلســـوف "انكســمندرين" فذهب إلى أن أصل الوجـــود و مبــدأ الأشــياء هــو [اللامتناهى] أو هو التوازن بين الأشياء الماديـــة، فـــهو يرى أن الأشياء تتكون بمجرد اجتماع عناصر ماديـــة و اختراقها بتأثير الحركة دون علة فاعلة، فالعـــالم عنـــده ليس له فاعـل و ليس له غاية و هو قديم و لن يفنـــى و ما هذا التطور الذى نراه إلا مظهر للحركـــة الـــذى يسببها التعادل بين الأضداء.

ثم جاء بعده أحد طلابه و هو "انكسيمانس" فحدد طريـــق الفكر المادى و جعله فى مادة واحدة ينشأ منها الكـــون حيث قال أن الهواء هو أصل الوجـــود و أن الأشـــياء تحدث منه بالتكاثف و التخلخل.

ثم جاء "هيراقليطس" ليعطى الفكر المادى دفعة جديـــدة فجعل التغير المستمر أصلاً لكل شئ فى هـــذا الكـــون فالأشياء عنده فى – تغير – دائم متصل و هذا التغـــير

إنما ينتج عنه الصراع بين التناقضات، و لذا فإن هـــذا الفيلسوف أثر تأثيراً كبيراً فى الاتجاه المــادى مــع أن "بارمنيدس" ذهب إلى عكس ما قاله هــــذا الفيلســوف، حيث ذهب إلى مبدأ عدم التناقض و أنكر فكرة التغير و قال إن الوجود صفة ملازمة للموجود و أن الوجــود لا ينقضه شئ و لا يتصور أن يأتى الفساد عليه، و علـــى ذلك فإن العالم عنده لا يفنى.

فكر ديمقريطس

عاش "ديمقريطس" بفكرة بين رأيين متعـــارضين: رأى يقول بأن التناقض هو السبب المباشر للتغـــير، و رأى آخر يقول بعدم التناقض و إنكـــار التغير، فـــأرد أن يتوسط بين هذين الرأيين.

المذهب الذرى و الوجود

ذهب "ديمقريطس" إلى القول بالوجود الثابت و القـــول بالتغير فى نفس الوقت و بذلك جمع بين رأى كل مـــن "بارميدس" و هيراقيطس": ذلـــك أنـــه رأى أن التغـــير ظاهر لا تنكر فى الكون كله فالكثرة و الحركة مشـــاهدة لكل الناس كما رأى أيضاً أن حركة الأشياء و كثرتها و

تغيرها خلال هذه الحركة لا تتناقض مع وجود شئ ما وجوداً ثابتاً و لذا فقد رأى أن العناصر الأساسية للكون هى:

الذرات

الحركة

الخلاء

فالذرات جواهر مادية فى غاية الصغر و الدقة و لا تقبل الانقسام و هى تختلف فيما بينها فى المقدار و الأشكال.

كما أن الأقسام تختلف عن بعضها باختلاف وضع الذرات المكونة لها و التغيرات التى تطرأ على جسم ما إنما تنشأ من اختلاف وضع الذرات فى هذا الجسم.

و التغير عند "ديمقريطس" يحدث من اجتماع الذرات و اختراقها، فعند الاجتماع ينشأ جسم ما، و عند الاختراق يحدث فناء هذا الجسم، و الذرات عند هذا الفيلسوف أبدية أزلية قديمة لم تأت من العدم لأن العدم-عنده- لا يأت بوجود و هى أيضاً لا تفنى و أن عددها لا نهاية له و هذه الذرات متحركة بنفسها و ليس هناك محرك

غيرها و لما كانت حركة الذرات تحتاج إلى الخلاء فقد اعترف هذا الفيلسوف به حيث تتم هذه الحركة فيه.

نشأة الكون

و على ذلك فإن نشأة العالم كان من اجتماع هذه الذرات حيث كانت هائمة في الخلاء بادئ ذي بدء ثم حدث صدام بينها و هذا الاصطدام هو الذي أوجد الحركة الدائرية و أوجد هذا الكون.

و هذا التغير يطبقه "ديمقريطس" على هذا كل الأشياء حتى على الروح و النفس و العقل و ذلك لأن هذه الذرات منها ما هو غليظ و هذه ينشأ عنها الأجسام و غيرها، و منها ما هو لطيف ينشأ عنها الروح و ما شابهها، و الآلهة عنده من ذرات لطيفة أخف وزناً و أدق حجماً.[١]

و هكذا جسد "ديمقريطس" المذهب المادى فجعل الوجود كله جسداً و روحاً وآلهة من هذه الذرات ثم هتف قائلاً:

(لا شئ في الكون يوجد غير المادة)

---

١) انظر ص ٦٢ وما بعدها مختصر د. عبد المعطي بيومي - جذور الفكر المادي - دار الطباعة المحمدية

اا المدرسة الأبيقورية[1]

بعد أرسطو ظهرت فى أثنا مدرستان متعاصرتان و متعارضتـــان: هما المدرسة الأبيقورية، و المدرسة الرواقية، و كان لهما أثر كبير فـــى أواخر العالم القديم و أوائل العهد المسيحى، لأنهما عنيتا خوصاً بالأخلاق، و كانتا تتنافسان فى دعوة الناس إلى السعادة.

ولد أبيقوروس فى ساموس سنة ٣٤١ من أسرة أثينيـــة، ثم جاء أثينا فى المرة الأولى و هو فى الثانية عشرة، و قضى فيها فترة قصيرة، ثم رحل إلى آسيا الصغرى، و فى سنة ٣٠٦ عاد إلى أثينا و أنشأ بها مدرسة ظل يعلـم فيها إلى وفاته سنة ٢٧٠.

الغاية من الفلسفة عنده طلب السعادة و النجاة من الألـم، لذلك لم يشتغل بالمنطق و الطبيعة إلا بالقدر الـــذى رآه ضرورياً لإقامة مذهبه فى الأخلاق. و لم يكن يقتضـــى

---

[1] ص ٣٧ و ما بعدها-دروس فى تاريخ الفلسفة-إبراهيم مدكــــور يوسف كرم: ١٩٥٣ مطبعة لجنة التأليف و النشر.

من التلميذ إلا أن يعرف القـــراءة، فأشـــبه الكلبييـــن و القورينائيين فى الرغبة عن العلم للعلم، و فـــى حصـــر الفلسفة فى الأخلاق و تبسيطها و جعلها فى متناول كـــل إنسان. و هذا موقف جدير بالاعتبار، و هو أقرب إلـــى الدين منه إلى الفلسفة، ذلك لأن الفلسفة بطبيعتـــها مـــن شأن أقلية ممتازة لما تقتضى من فراغ و ذكاء و طـــول بحث و كانت كذلك عند اليونان. و لكن هذه الشـــروط غير ميسورة لكل الناس، و لهم مع ذلـــك الحـــق فـــى السعادة، فكان لا بد من اختصار الفلسفة، و الاقتصـــار منها على ما يتصل بالأخلاق فحسب.

"أبيقوروس" مادى على مذهـــب "ديموقريطـــس"، قـــال بـــالجواهر الفـــردة مـــع شـــئ مـــن التعديـــل: كـــان "ديموقريطس" قد نفى الثقل عن الجواهر، و لـــم يعيـــن علة لحركتها، فارتأى "أبيقوروس" أن الثقل خاصية لها، و أنه علة الحركة مـــن أعلـــى إلـــى أســـفل. و كـــان

"ديموقريطس" قد قال: إن هذه الحركة تتم على خط مستقيم، ففكر "أبيقوروس" أن الجواهر إذن لا تتلاقى و لا تؤلف الأشياء، و لكن الأشياء موجودة مؤلفة من جواهر كما يقرر المذهب، فلا بد من القول أن الجواهر تنحرف من تلقاء أنفسها فى هذا السقوط فتتلاقى. و لنا على ذلك شاهد آخر من أنفسنا: فإن لنا إرادة حرة تضاد حركة الجسم الطبيعية، و هذه الإرادة هى انحراف الجواهر فى الإنسان، و ما هو حاصل فى الإنسان حاصل فى الطبيعة. بهذا الإنحراف ظن "أبيقوروس" أنه يصلح مذهب "ديموقريطس" و يعلل الحرية، و الحرية ضرورية للأخلاق.

و هو مادى فى الأخلاق أيضاً، و لكنه يسعى جهده لتلطيف ماديته، فغاية الحياة عنده اللذة الجسمية، كما قال "أرستبوس"، إلا أنه يفتقر حالاً عن هذا الفيلسوف فيشترط أن تكون اللذة لذة حقاً، أى أن لا تجر وراءها

ألماً، و إلا بطل أن تكون لـــذة خالصـــة، فيجـــب إذن اجْتناب اللذة التى تسبب الألم. و كذلك قد يقضى طلـــب اللذة تحمل بعض الألم، فيجب قبول الألم الذى يســـبب لذة أعظم. إذا نحن اتبعنا هذين المبدأين حققنا لأنفســـنا لذة مستمرة طول الحياة، بينما اتباع مبدأ "أرســـتبوس" مطلقاً من كل قيد بالجرى وراء كل لذة و الهروب مـــن كل ألم، دون نظر إلى العواقب، يورث الهم و المرض، و بعبارة أخرى: اللذة التي هى الغاية ليست تلك الحركة العنيفة التى نضطرب بها حيناً، ثم يكـــون بعدهـــا مـــا يكون، بل هى الاستمتاع بالهدوء و الطمأنينـــة أطـــول وقت ممكن. و بذلك نخرج من مذهب اللذة إلى مذهـــب المنفعة، فلا نطلب اللذة الحاضرة لمجرد كونـــها لـــذة فحسب، بل نطلب منفعتنا طول الحيـــاة إن أمكـــن، أى نطلب لذة خاصة دائمة هى ما يعبر عنه بالسعادة.

و تتحقق السعادة بتوازن الجسم و خلوه مـــن الألـــم؛ و بهدوء النفس و خلوها من الخوف؛ و لأجل العمل علـــى توازن الجسم يجب الاكتفاء باللذات الصادرة عن إرضاء للنزعات الطبيعية الضرورية كلذات الطعام و الشـراب، و القناعة فى ذلك بما تتطلبه الطبيعة حقا، و هو قليـــل. أما الترف فى الطعام و الشراب، فلذة غير ضرورية لا تقتضيها الطبيعة، لذلك يجب رفضها فى الأكـــثر، و إن رأينا أن نرضيها أحياناً فليكن ذلك بغاية التـــؤدة لئـــلا تتحول إلى شغف فتجلب لنا الهم.

و لأجل العمل على هدوء النفس يجب الإقلاع عن طلب بعض لذات يتوهمها معظم الناس لذات الحقيقة، و هـــى أسباب اضطراب كثير و ليست طبيعية و لا ضروريـــة، مثل لذة المال و نباهة الذكر و جاه المنصب، و يجـــب العدول عن كل ما من شأنه أن يشغل البـــال و يجلـــب الهموم؛ مثل الزواج و الشـــؤون السياســـية. و يجـــب

تخليص النفس من الخرافات التى تزعج العامة فى كل وقت، و تولد فى نفوسها الخوف من الآلهة و القدر و الكسوف و الخسوف و غيرها من الظواهر الجوية و الموت. فالآلهة لا يعنون بالعالم، و العالم مادة و حركة ليس غير، فلا معنى للقدر، و ليست الظواهر الجوية علامات شر و لا خير، و إنما هى أحداث طبيعية فحسب، و إذن لا داعى هناك للخوف و لا للصلاة أو تقديم الكرابيين، و إن جاز "للأبيقورى" أن يختلف إلى المعابد و يشارك العامة فى شعائرها، فذلك تفادياً من خصومها و ضماناً لطمأنينته، كما كان يعمل "أبيقوروس" نفسه. أما الموت فالخوف منه ناشئ عن وهم بحت، إنه فناء تام فلا شعور فى القبر و لا ألم.

و "أبيقوروس" مادى كذلك فى مذهبه الاجتماعى، فهو لا يعتقد بالعدالة نظاماً طبيعياً، و إنما هو يرى أن المنفعة هى القانون الطبيعى، و أن الأصل أن لكل

إنسان أن يطلب منفعته ما وسعه الطلب. و لكن الناس إذا عملوا بهذا الأصل لتعارضوا لتعارض منافعهم و أضر بعضهم بعض، فتعاهدوا أو تعاقدوا على حدود يلزمونها، و هذا ما يسمى بالعدالة و هو تعاقد قائم على المنفعة. فلا عدالة حيث لا يوجد عقد، و لا عدالة حيث يمكن بقض العقد وتحقيق المنفعة دون استهداف للخطر. غير أننا فى الغالب لا نأمن انتقام الآخرين، فعلينا أن نلتزم العدالة لنكفل لأنفسنا السلامة من الانتقام و الخوف منه، و نحتفظ بالطمأنينة و هى خيرنا الأعظم.

على هذا النحو حاول "أبيقوروس" أن يصون الاجتماع كما حاول أن يصون الأخلاق مع تمسكه بالمذهب المادى، الذى إن طبقناه تطبيقاً دقيقاً هدم الأخلاق الفردية و الاجتماعية لقصوره عن تقديم مبدأ يوجب علينا تفضيل المنفعة و الطمأنينة. إذا كانت الغاية هى اللذة و كان كل شئ ينتهى بالموت، فكيف السبيل إلى

إقناع "أرستبوس" و اتباعه إذا هم آثروا حيــاة قصــيرة قوية اللذة على حياة طويلة خفيفة اللــذة؟ الأمــر هنــا متروك للمزاج الشخصى، و كان "أبيقــوروس" رجــلاً عليلاً سقيماً فمال إلى القناعة و الراحــة، و لــم يكــن تلاميذه مرضى فما لبثت أمزجتهم أن مالت بــهم إلــى اللذة من غير قيد و لا حياء، فأشبهوا "القورينــائيين" أو فاقوهم حتى صار لفظ "أبيقورى" مرادفاً للفظ المســتهتر مع بعد مذهب "أبيقوروس" و سيرته عن الاستهتار.

المدرسة الرواقية

ظهرت الرواقية فى نفس الوقت معارضة "للأبيقورية" أشد المعارضة، أنشأها "زينون" و هو أسيوى ولد فى قبرص سنة ٣٣٦، ثم جاء أثينا حوالى سنة ٣١٢ و تردد على مدارسها و أخذ يعلم فى رواق-و هذا أصل تسميته هو و أتباعه بالرواقيين- و تعتبر المدرسة أول مشاركة بارزة من جانب الشرقيين فى الفلسفة اليونانية، فقد كان لها بعد "زيبون" زعيمان كبيران أسيويان أيضاً عمل على توضيح مبادئها و تأييدها ضد خصومها. ذلك أن حروب "الاسكندر" كانت قد فتحت الشرق أمام اليونان و ثقافتهم فاصطنع الشرقيون هذه الثقافة و ساهموا فيها، و كان الساميون منهم مبرزين فى هذا الميدان، و كانت "الرواقية" أعظم شاهد على منافستهم لليونان.

"الرواقيون" ماديون على مذهب "هرقليطس"، و المادية هى النقطة الوحيدة التى يتفقون فيها مع "الأبيقوريين"، غير أنهم يخالفونهم فى تصور المادة، فهم لا يعتقدون بالجوهر الفرد، أى بجزء من المادة لا يتجزأ، بل يزعمون أن المادة متجزئة بالفعل إلى غير نهاية، و أن النار هى التى تمسك أجزاء الجسم و تجعله واحداً، كما أنها هى التى تربط أجزاء العالم و تجعل منها كلاً متماسكاً. و يرون فى النار رأى "هرقلطس" من أنها شئ حى، فيه قانون أو قدر أو عقل تعمل بموجبه، و أن العالم جسم فى نفسه النار العاقلة، و يدعون العالم الله. فهم "حلوليون" لا يفصلون بين الله و العالم، بل يحلون الله فى العالم و يجعلونها موجوداً واحداً يتطور من النار الصرفة إلى مظاهر الكون المختلفة، ثم تخلص النار من هذه المظاهر فيحدث [الاحتراق العام]، و تعود فتتطور على نفس هذا النسق، و هكذا إلى مالا نهاية.

و مذهبهم فى الأخلاق تابع فى هذه النظرية. فإذا كـــان فى الطبيعة قانون و عقل و كان الإنســـان جـزاً مـــن الطبيعة، فوظيفته أن يحيا وفق الطبيعة و العقـــل، و إلا كان متمرداً على القانون الكلي متوهماً نفسه مستقلاً عن سائر الوجود و هو جزء منه مرتبط به كل الارتبـاط. و يتعرف الإنسان قانون سيرته بـــالرجوع إلـــى ميولـــه الأساسية و قد وضعت الطبيعة فيه هذه الميـــول لتدلـــه على إرادتها منه، فالميل الأوليّ هو حب البقـــاء الـــذى يهديه إلى التمييز بين ما يوافقه و يحفظ كيانـــه، و مـــا يضاده و يلاشيه. "فالأبيقوريون" علىُ ضلال، إذ يدّعون أن الميل الأولى طلب اللذة، فما اللذة إلا عرض ينشـــأ حين يحصل الإنسان على ما يوافق طبيعته، و ما الألـــم إلا عرض ينشأ حين يحل الإنسان ما يضاد طبيعتـــه، و تنقلب اللذة شراً و ألماً إن طلبت لذاتها دون نظر إلـــى موافقة الفعل للطبيعة الإنسانية أو عدم موافقتـــه. فمـــا تجب مراعاته أولاً و قبل كل شئ، و دون كل شئ، هو

مطابقة الإرادة الإنسانية للإرادة الكلية. فى تلك المطابقة وحدها الحكمة و الخير و الفضيلة و السعادة، لأنها فـــى مقدورنا كلما أردنا، لا تستطيع قوة أن تحولنا عنها، لأن قوة ما لا تستطيع أن تنفذ إلى الإرادة و تقهرها علـــــى غير ما تريد.

و ما عدا ذلك من الأشياء الخارجية و أحداث الحيـــاة، ليس خيراً أو شراً بالذات، و ليس متعلقاً بإرادتنا. فمـــن الحماقة أن نسعى وراء الأشياء الجزئية الزائلة و نكلـف أنفسنا فى هذا السعى المشاق و الهموم، و من الحماقـــة أن نهلع لمرض أو حرب أو نكبة أياً كـــانت و ننغــص حياتنا بالخوف و الحزن و اليأس. و ما هذه الانفعـــالات بمجدية شيئاً فى دفع المقادير و تصريف الحدثان، بـــل واجب الحكيم أن يعتصم بإرادتـــه و يعتصـــم بحريتـــه فيرتفع بنفسه فوق كل شئ، لا يخاف و لا يرجـــو و لا يأسف و لا يحزن، بل يقبل طوعاً كل ما يصيبـــه مـــن

رزايا فى عرف الناس لعلمه أنها ليست كذلك فى عرفه، و أن كل شئ فى الطبيعة إنما يحدث بالإرادة الكلية، اللهم إلا إذا نزلت به نوازل لا تطاق، فله حينئذ أن ينتحر و يتخلص من حياة عجزت إرادته فيها عن تحمل القدر، و زال منها التطابق بين الإرادة و الطبيعة.

و "الرواقيون" يعارضون "الأبيقوريين" فى المسائل الاجتماعية: فالأسرة عندهم طبيعية، و المجتمع طبيعى كذلك يتكون بامتداد التعاطف و التعاون إلى خارج نطاق الأسرة. و من واجب الحكيم "الرواقى" أن يؤسس أسرة و يعنى بالشئون الاجتماعية، بل إن عطفه يعدو حدود المدينة و حدود الجنس فيشمل الإنسانية جمعاء، لأن أفرادها متفقهون فى الماهية موجودون فى طبيعة واحدة، فهم جميعاً اخوة و مواطنون، و وطن الحكيم "الرواقى" الأرض بأسرها.

و "للرواقيّين" موقف بإزاء الدين يختلف عـــن موقـــف "الأبيقوريين"، فقد كان هؤلاء يقومون بالشعائر الشـــعبية رياء و خشية إثارة العامة عليهم، بينمـــا "الرواقيـــون" كانوا يروضون أنفسهم على التقوى و يذكـــرون الله و يتوجهون إليه بالدعاء. لهم صلوات رائعة و حكم سامية فى محبة الله و عبادته و التسليم لإرادته، و لكنـــهم لـــم يخلوا من الرياء أو التناقض. فانهم كانوا يقصدون بـــالله النار و قانونها الضرورى، لا شخصية حـــرة ســـميعة مجيبـــة، و كـــانوا يذكـــرون أيضـــاً آلهـــة بأســـمائهم الميثولوجية فيجارون العامة فى الظاهر، و يعنون بـــها فى الباطن الكواكب و العنـــاصر و القـــوات الطبيعيـــة الكبرى.

و بالجملة كانت "الرواقية" و "الأبيقورية" على طرفـــى نقيض: تقول "الرواقيـــة" بوحـــدة الوجـــود و بقـــانون

ضرورى أو عقل كلى منبث فى الوجـــود، و تلتمــس أساس الأخلاق فى حرية الإرادة و تعين لها قانوناً هــو الواجب، واجب المطابقة بين الإرادة الفرديـــة و الإرادة الكلية، و تضع السعادة فى الواجــب و عبــادة العقــل الكلى، فهى مدرسة عقلية على الرغم مـــن ماديتـــها، و مدرسة فضيلة و شجاعة. و تقول "الأبيقوريـــة" بكــثرة الموجودات و تدعها لفعـــل الصدفـــة دون رابــط و لا قانون، و تضع السعادة فى اللذة و تجعل قانون الأخلاق المنفعة الذاتية، و تقصى الآلهة خارج العـــالم و تنكــر دعاءهم، فهى مدرسة مادية بكل معنى الكلمة، و مدرسة لذة و دعة. إلا أن المدرستين تتفقان فى المادة و إنكـــار الخلود، فتبدوا "الأبيقورية" أكثر تمشياً مـــع المنطـــق إذ تستبعد العقل و القانون و الواجب و الفضيلة، إذ تـــأخذ على نفسها السمو بالإنسان فوق المادة و الحياة الراهنـــة لا تملك غيرها.

بعض نظريات الالحاد

التغيرات الأساسية :

فى الإمكان أن نؤرخ لبداية هذا العصر من أوائل القرن التاسع عشر تقريباً ، ويستمر إلى نهاية السياسة الماكرة الخبيثة التى تحيط بإنسان اليوم .

وفى هذا العصر فسرت الحياة تفسيراً جديداً على النحو التالى :

١ ـ جعل أصل الإنسان حيوانيا بدل أن يكون أصلا علوياً .

٢ ـ تحولت دقة الفطرة الإنسانية ونقاؤها إلى ظلمة نظرية الغريزة .

٣ ـ تحولت نظرية (العفة) و (الشرف) إلى نظرية (الجنس) المستهتر

٤ ـ كسرت المرآة الروحية للإنسان بحجارة الاشتراكية الجامدة .

كلمة عن مفهوم النظرية :

ينبغى قبل الدخول فى تفصيل نظريات الإلحاد فهم بعض الأمور الأساسية نسردها على النحو التالى :

أولا : إن جوهر كل نظرية هو النقطة المركزية لها والفكرة الأساسية فيها ، وبهما يتحدد مكانتها ودورها .

ولذلك لايمكن صرف النظر عنهما البتة وقت تحليل النظرية ، وإلا تعسر الوصول إلى حقيقتها الأصلية .

ثانياً : لايمكن اتخاذ رأى قطعى فى نظرية بأسرها بمجرد النظر إلى منفعة جزء منها ، ولايستفيد الحكم حتى تكون جميع أجزاء النظرية وآثارها ماثلة أمام العين .

وكذلك لا يحكم بالمطابقة والاتحاد إذا كان التعبير عن جزء منها مشابهاً ومماثلا لنظرية أخرى .

ثالثاً : إن البيئة والظروف تلعبان دوراً فعالا في إبراز النظرية وتنشيطها فإذا لم تظهر نظرية كاملة في عصر ما بسبب الضغط الخارجي فإنه تجحد منافعها لهذا السبب ، ولا يحكم بأنها نظرية بالية (Out of date)

رابعاً : لكل عصر تفكيره ، ولكل شيء مكانه ، وقد يحتاج إلى مدة طويلة في تغيير أفكار العصور ومكانة الأشياء فيها ، وتعمل في إنجاح هذا التغيير كثير من المؤثرات الداخلية والخارجية ، وبالتالي فلا يمكن فرض نظرية بطريقة مفاجئة . ومن الواجب أن لا نشك في أهميتها وفوائدها لعدم ظهور الإقبال الشديد عليها وانجذاب الناس إليها .

خامساً : لقد تحول هذا العصر إلى (اللادينية) بعد أن قطع مراحل عديدة ، وإنه سيصل لا محالة إلى النهاية وفق السير الطبيعي ، ثم يفقد قوته ويمهد — من جديد — للعصر الديني ؛ كما لا تخفى آثار ذلك على العيون المبصرة للحقيقة في أيامنا تلك .

وفيما يلي نذكر أهم النظريات الإلحادية بشيء من التفصيل حتى يسهل تجلية الملامح الممهدة للعصر الديني .

١ — نظرية التطور

تنسب هذه النظرية إلى دارون (Charles Darwin) ١٨٠٩ — ١٨٨٢م ، ومن المعلوم أن التطور حقيقة ، ووجوده ثابت في النظريات والأديان القديمة .

ولكن (دارون) هو الذي حاول تقديم التعليل الميكانيكي للحياة ، وأوضح أسباب التطور بطريقة خاصة ، وبهذا صارت هذه النظرية متميزة وممثلة للعصر الإلحادي ، ومنسوبة في الوقت نفسه إلى شخصية دارون .

مصطلحات ثلاثة : ويجب لكى نفهم هذه النظرية أن نطلع على ثلاثة مصطلحات أساسية :

١ ــ مصطلح (تنازع البقاء) أى الصراع من أجل الحياة والبقاء .

٢ ــ مصطلح (الانتخاب الطبيعى) أى انتخاب الأشياء الصالحة فطرياً للقيام والبقاء .

٣ ــ مصطلح (البقاء للأصلح) أى أنه لايبقى إلا الشيء الذى يصلح للبقاء .

وقد جعل دارون رأيه فى أن البقاء للأصلح وسيلة لتطور كل شيء ، وذلك أن النبات والحيوان والإنسان ــ كلها تخرج إلى عالم الوجود من مرحلة غير متطورة للحياة نسبيا ، ويكون التمايز بين الأنواع ببقائها ، والبقاء إنما يحصل للأنواع التى تكون أعضاؤها وقواها ملائمة للبيئة التى وجدت فيها ، قادرة على تحديات البيئة والعصر .

وفى ضوء هذه القاعدة فإننا نرى جميع الكائنات الحية مشغولة بالصراع من أجل الحياة ، فالذى يستطيع امتلاك آلات الصراع فإنه يبقى ، أما الذى يفتقد هذه الآلات فإنه يكون غير صالح ويتعرض للفناء .

وهذا الصراع قد يوجد بين أفراد جنسين مختلفين كما قد يوجد بين أفراد الجنس الواحد ، ولكن استمرار الحياة لايتيسر إلا للأفراد الذين توجد فيهم خصائص ملائمة للبيئة .

ونوضح ذلك بالمثال التالى :

لقد كان هناك فى الزمن القديم قطيع من البهائم العجماء (١) ، وهذا القطيع يضم حيوانات مختلفة من ناحية قوتها على الدفاع ، فرأس بعضها كان ضعيفاً ، ورأس البعض الآخر كان قوياً ،(٢)

---

(١) البهيمة العجماء هى التى من غير قرون .

(٢) ص ١١٧ وما بعدها - عصر الإلحاد لمحمد تقي [illegible] الندوي : ترجمة مقتدى ياسين - دار الصحوة للنشر ١١٩

ويمكن أن يكون قد وجد بينها — على سبيل الافتراض — بهيمة توجد فيها علامة ظهور القرن وهو الذى سيصبح آلة الدفاع — فيما بعد — ! !

— ولقد كانت السباع والحيوانات القوية الأخرى تهاجم هذا القطيع ، وهى تحاول الدفاع عن نفسها . ومن الواضح أن النجاة من هذا الهجوم لم تكن متيسرة إلا للبهائم التى تتمتع بقوة دفاعية أكثر ، أما التى لاتتمكن من الدفاع عن نفسها فإنها لابد وأن تنهزم وتموت .

ثم إن هذه البهائم المتبقية كانت تتناسل ، وتنتقل منها قوة الدفاع — التى حافظت على الآباء — إلى الأولاد ثم تتطور فى الأحفاد وهكذا .

وهذه القرون أو آلات الدفاع الجديدة كانت إنتاجاً جديداً للفطرة ، بينما كانت ميزة شخصية الحيوانات فى الأولى التى بدأت فيها بشائر القرون ، ولكن جهد الصراع من أجل البقاء وعملية الانتخاب الطبيعى كانتا مستمرتين فلذا تحولت هذه الآلات إلى خصائص جنسية فيما بعد .

وهذا المثال يوضح لنا مفهوم المصطلحات الثلاثة إلى حد كبير ، أى أن الصراع كان واقعاً بين البهائم والحيوانات القوية من أجل الحياة واستمرار البقاء ، وكان القوى منها مصمما على إبادة الضعيف ، وهذا هو معنى التنازع من أجل البقاء .

وقد انتصرت فى هذه الحرب البهائم التى كانت رؤوسها أقوى وفيها بشائر القرون وهذه البهائم هى التى بقيت حية ، وهذا هو الانتخاب الطبيعى .

وقد تقررت أهلية الحياة — فى حلبة الصراع من أجل البقاء — للبهائم التى كانت تملك قوة المقاومة والدفاع أكثر من غيرها . وهذا هو معنى البقاء للأصلح .

وبما أن الأهلية كانت منوطة بقوة الدفاع ، وكان عمل الانتخاب الطبيعى متوقفاً عليها ، فلذا تكيفت خصائص آلات الدفاع هذه وفق البيئة والظروف . ثم صارت بالتدريج خصائص للجنس كله ، ثم تناقلت أجيال

البهائم جيلا بعد جيل ، هذه الخصائص بطريقة وراثية ، بينما كانت هذه الخصائص فى البداية خصائص شخصية وإنتاجاً جديداً للفطرة .

رجعة سلبية :

لقد توقف مبدأ الانتخاب الطبيعى فى المثال السالف الذكر على منفعة إيجابية واضحة وهى آلات الدفاع التى كانت مناطاً للأهلية ، ولكن فى كثير من الأحايين تقع الخسارة محل النفع ويكون ذلك — أيضاً — وفق نظرية الانتخاب الطبيعى الذى قال به دارون ، ومثال ذلك أن فصيلة من الطيور ذوات الريش قد حلت فى جزيرة ما بسبب الطوفان ، ثم ألقاها الطوفان فى البحر فهلكت ، فلو فرضنا أن طيراً منها كان بدون ريش ولم يتمكن من الطيران مع فصيلته ، فعاش وبقى بسبب ضعفه ونقصه ، وهذا الضعف سوف ينتقل فى أولاده ، وسوف تتوالد ذريته متصفة بهذا النقص ، ومن ثم تستمر سلسلة (الانتخاب) هذه إلى أن يكون الخلو من الريش ميزة لهذا النوع من الطيور (١) .

إجابة غير مقنعة :

ولاشك أن عمل (الانتخاب الطبيعى)يأخذ اتجاها قهقريا فى هذه الصورة وقبحه فيها واضح ، ولكن ليس هناك رد سوى أن عمل التطور يكون حيناً للأمام وحينا للخلف . ولايخفى على أهل النظر ما فى هذا الرد من الضعف .

وهناك كثير من الملاحظات والاعتراضات على هذه النظرية لم تلق رداً شافياً ، والآن لقد تجمعت أمور كثيرة ضد هذه النظرية جعلتها نظرية بالية ، ومع ذلك لم يخل منها إلى الآن قسم من أقسام العلوم والفنون.وما انتشرت البحوث المعارضة لها ، ولهذا يجب معالجتها من حيث تأثيرها على الحياة الإنسانية (٢) .

---

(١) تاريخ الفلسفة للفريد ويبر ص ٤٩٢ .

(٢) الحق انه ظهرت بحوث علمية رصينة كثيرة فندت هذه النظرية ، وآخرها لازال بالفرنسية وهو قيد الترجمة للدكتور موريس بوكاى وعنوانه : أيها الانسان : مـن أين جئت ؟ ولـكن الاعـلام الـذى يسيطر عليه التوجيه الصهيونى يركز أضـــواءه على مدرسة دارون فتبدو كأنها المنتشرة ... مع أن نظرية دارون قد انتهت علميا (المراجع) .

الإنسان فى ميزان هذه النظرية :

والإنسان وفق هذه النظرية صورة متطورة للحيوان ، أى أن الإنسان كان أولا قرداً ، ثم حصل تطور متدرج فى مدة تقترب من مليون سنة تحول خلالها القرد إلى صورة الإنسان المعروف ، وعلى غرار تطور الجسم حصل تطور فى الذهن والتفكير بالتدريج ، ولذا كان دماغ الإنسان مثل دماغ الطفل ، وكانت القوة المتخيلة لديه معدومة ، ثم حصل التطور العقلى والفكرى بالتدريج واستحق الإنسان أن يسمى (إنسانا عاقلا ناطقاً) .

الجسم والنفس :

وحسب نظرية دارون التى شرحناها من قبل فإن الإنسان ليس إلا صورة متطورة للحيوان ، وهذا ينطبق عليه من الناحية الجسمية والذهنية معاً ، والمماثلة ثابتة أيضاً فى شعور الإنسان والحيوان .

نعم : يختلف أتباع دارون فى طبيعة هذه المماثلة على أساس هل الإنسان هو الذى هبط إلى مستوى الحيوان أو أن الحيوان هو الذى ارتفع إلى مستوى الإنسان ؟ أى هل ذاب الأعلى فى الأدنى أو الأدنى فى الأعلى ؟

والذين يجعلون الإنسان مماثلا للحيوان يثبتون القيم والخصائص الإنسانية من الأعمال النفسية والكيفيات العضوية السابقة للحيوان ، ويجعلون هذه القيم أصيلة فى الحيوان مثل الإنسان ، حتى يجعلوا القوى الذهنية والفكرية أيضاً ظاهرة مكتسبة وبالتالى فقد يستطيع الحيوان اكتسابها بالتطور التدريجى مثل الأعضاء الجسمية .

أما الذين يجعلون الحيوان مماثلا للإنسان فيثبتون القيم والخصائص الإنسانية فى الحيوان على أنها خصائص فرعية ، حتى إنهم يقولون بوجود العواطف الدينية وغيرها من المشاعر المحترمة فى الكلاب والقرود والذباب .

المادة والإنسان فى هذا التعليل :

وكلا الفريقين يتفقان على أنه لم يدخل فى مرحلة من مراحل نمو الإنسان أى جوهر آخر أو تأثير روحى .

وأصل التطور التدريجى الذى يعمل فى أعضاء الجسم الإنسانى هو الذى يتطور من الحالة الأدنى إلى الأعلى ، وهكذا يجرى هذا الأصل فى النظام العصبى والذهنى ، ومعناه أن الخصائص الذهنية والفكرية إنما تظهر نتيجة للتطور التدريجى .

وخلاصة القول إن أساس العمل فى نظرية التطور هو المادة ، وكل من النفس والروح والعقل والشعور صورة من صور المادة ونتيجة من نتائج نشوئها وتطورها .

وفى هذا التعليل الميكانيكى تسرى المادية فى عروق الإنسان بحيث ينسد الطريق أمام الأشواق الروحية ، وسيبدو لنا وكأن التفكير المادى الذى أستوردته حركة الإصلاح الدينى من الحضارة اليونانية والرومانية قد تمت له الغلبة وأنه قد قطع مراحل الكمال بهذه النظرية .

الفلسفة وتأثيرها :

ما الإنسان ؟

ومن أين جاء ؟

وإلى أين يذهب ؟

إن هذه أسئلة تحاول الفلسفة الإجابة عنها منذ آلاف السنين ، ولكن كل إجابة من إجاباتها قد لونت بلون صاحبها وظهرت بها فلسفة معينة ، وكذلك كانت كل إجابة ابنة عصرها الذى جاءت فيه الإجابة .

ومن هنا لم نحصل حتى الآن على شئ صالح قطعى ، ولا سلمت فلسفة ما من آثار العوامل الشخصية وتأثيرات البيئة والعصر .

الفلسفة والروح :

والعمل الأصلى للفلسفة هو تعيين حدود (الفكر) و (العمل) بعد فهم مشاعر الإنسان وعواطفه الفطرية ، وبذل الجهد للحفاظ على قوة أوتار الحياة الدقيقة .

— وجدير بالذكر أن عالم الفكر والعمل الذى لا يمكن فيه تغليب العقل على العواطف . . ولا يوجد فيه سبيل لإيجاد التوازن فى حركات الأوتار(١) . . . هذا العالم لا يستطيع أن يقود سفينة الإنسان المتورطة فى الأمواج إلى ساحل النجاة .

أما تحريك أوتار الحياة التى يكمن فيها سر بقاء الحياة ، وكذلك التفاعل الذى يجب وجوده مع عملية التحريك حتى توجد الأنغام المنسجمة . . . كل ذلك خارج عن استطاعة (الفلسفة) إلى حد كبير . ! !

ولهذا السبب لم تنجح الفلسفة فى أى عصر من العصور فى معالجة مشكلات الإنسانية وطمأنة روح الإنسان ، واضطر العالم — مجبراً — لأن يحتمى بسياج الدين .

الفلسفة والدين :

والواقع أن كل فلسفة جديدة إنما تظهر فى عصر انحطاط الدين ، ويقبلها الناس بديلا عن الدين الذى يكون قد فقد دوره فى عصرهم . وبما أن هذه الفلسفة لا تستطيع إقناع الروح فإنها تبذل الجهود الكثيرة للتفاهم مع الدين وللتوفيق بين مقولاتها ومبادئه ، ولو بتعسف شديد .

— وهذا الوضع قد ينفع الفلسفة بدون شك . فإنها تقوى أرجلها (الخشبية) بالدين ولكن هذا — فى المقابل — يضر الدين كثيراً ، فإخضاع الدين لهذا المنهج يفقده دوره الأصلى وتتلاشى قوته بين عوامل الهجوم

---

(١) الأوتار هى الطاقات الانسانية المحركة للكيان الانسانى (المراجع)

(١) ص ٧٢ ج ١ أصل الانواع طبعة ثانية سنة ١٩٢٨ لشارلز داروين ترجمة إسماعيل مظهر .

موقف الكنيسة من نظرية التطور

لقد كان كتاب أصل الأنواع إزاء عالم اللاهوت كمثل محراث جامح صادف قرية من قرى النمل فشتت جموعها وأحال هدوءها فرقا وفزعا ، وأعلن رجال اللاهوت : أن مبدأ الانتخاب الطبيعي يتعارض مع كلمة الله كل التعارض ، لأنه يناقض العلاقة بين الخليقة وبين الخالق كما قرره الوحي[١] .

كما وصف بأنه فلسفة وحشية تقرر عدم وجود إله وتصرح بأن القرد أبونا آدم[٢] ، وأن مذهب دارون محاولة يراد بها إزال الله عن عرشه .

وقال ثقة من رجال اللاهوت :

إذا صح مذهب دارون كذب « سفر التكوين » وتحطم كيان الحياة وكان وحي الله إلى الإنسان ـ كما يعرفه المسيحيون ـ هذيانا وأحبولة[٣] .

لقد فزعت الكنيسة لأن نظرية دارون ذات إيحاء قوى بحيوانية الإنسان .

يقول جوليان هكسلي في كتابه « الإنسان في العالم الحديث »[٤] ـ وهو من علماء الداروانية الحديثة ـ وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب إعتبار نفسه حيوانا .

---

(١) أسقف ولبرفورس .
(٢) الكردينال مانتج .
(٣) قصة النزاع بين الدين والفلسفة . د/ الطويل ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٤) ترجمة حسن خطاب وراجعه عبدالحليم منتصر ـ نقلا عن التطور والثبات محمد قطب ـ دار الشروق طبعة رابعة ١٩٨٠ .

لقد كان دارون بطل هذا الانقلاب التاريخي حين قرر حيوانية الانسان ، فنفى عنه تلك النفحة الالهية التي رفعته عن مستوى الحيوان ، وهبط به إلى الأرض لا يحلق ولا يسمو إلى الملكوت الأعلى .

كذلك أفزع الكنيسة من نظرية دارون أن من ورائها فلسفة مادية بحتة لاتتيح مجالا لأي شيء خارج عن الأرض وعن المادة المحسوسة .

فقد جذبت هذه الفرضية — بفضل إنتصاراتها التجريبية — عدداً كبيراً من ذوي الرأي وأدت بهم إلى قبول المذهب المادي أساساً لفلسفتهم في الحياة ولا يزال كثير من الناس حتى يومنا هذا يتمسكون بالقول بأن كل ماهو مادي فهو حقيق ، كأنهم يصدرون بذلك عن السليقة(١) .

وكانت الكنيسة محقة في فزعها وتخاوفها من نظرية دارون ، فقد كان الباعث على التمسك بهذه النظرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يرجع إلى الموجة الالحادية التي سيطرت على العقول .

ومن أهم سماتها حصر طريق المعرفة في الحس ، وحصر المعــرفة الحقيقية فيما نعرفه عن هذا الطريق وبالتالي رفض المعارف الدينية .

يقول « آثر كيث »(٢) :

الارتقاء غير ثابت ولا يمكن إثباته ، ونحن نؤمن بهذه النظرية ، لأن

---

(١) منازع الفكر الحديث : تأليف الفيلسوف المعاصر - جود - ترجمة عباس فضلي - مراجعة د/ عبد العزيز البسام . مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦ م .

(٢) عاش مابين عام ١٨٦٦ — ١٩٥٥ .

البديل الوحيد هو الايمان بالخلق المباشر وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه"(١).

ويقول صاحب كتاب الانسان بين المادية والاسلام :

وليس تهرب الداروينيين من البحث فى مسألة نشوء الحياة على ظهر الأرض بحجة أنها مسألة لا تهمنا فى البحث ولا يمكن الوصول إلى دليل فيها - إلا مظهراً للتهرب من الاعتراف بوجود كائن أعلى يشرف على الحياة والأحياء ويتدخل فى الخلق والانشاء . ثم يقول :

إنها فلسفة ترفض كل مالا تستطيع الحواس أن تدركه ولا تؤمن إلا بهذا الواقع الصغير الذى يبصره الحس ويصل إلى ميدانه العلم . ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية الحديثة وكل الفلسفات المسيطرة عليها .

منها نشأت شيوعية « كارل ماركس » فى الشرق وفلسفة « فرويد » فى أوربا والبراجماتزم فى أمريكا ، والوجودية فى فرنسا وكلها تمثل أصلا واحداً وإن اختلفت المظاهر والفروع(٢) .

فالايحاء بحيوانية الانسان ليس هو الأثر الداروينى الوحيد الذى حط من قدره وكرامته ، بل إقترن به - كما قلنا - إيحاء آخر لا يقل خطورة عن الأول وهو الايحاء « بمادية الانسان » أى خضوعه للقوانين المادية التى تفرض عليه ماتفرضه على المادة الجامدة .

فالانسان فى نظر الداروينية لم يتطور مختارا - بل كان تطوره مظهراً لخضوعه المطلق للبيئة الطبيعية ، أى عوامل خارجية حتمية - صحيح أن هذا التطور لصلحته لكنه لم يكن نابعاً من إرادته .

---

(١) الدين فى مواجهة العلم - وحيد الدين خان ترجمة ظفر الاسلام خان ص٣٦ طبعة ثانية - المختار الاسلامى للطباعة والنشر .

(٢) محمد قطب ص ١٦ طبعة خامسة سنة ١٩٧٨م دار الشروق .

ولم يكن متوقعاً من الداروينية أن تقول ـ فى تلك الظروف السيئة ـ إن الله هو الذى اختار الانسان ، لأن ذلك يفقدها صفة [الميكانيكية] بل ويجرها إلى اعترافات أخرى كالإقرار بأن له روحا ، وأن لوجوده غرضا كما تقول الكنيسة .

وإذن فلا مناص من القول : بأن العوامل الطبيعية وحدها صانعة التطور وفارضته على الانسان ، والانسان ما هو إلا مرآة تنعكس عليها تقلبات الطبيعة المفاجئة وتخبطاتها غير المنهجية(١) .

ومن هنا كان هجوم الكنيسة على هذه النظرية هجوما شديدا .

---

(١) العلمانية : تأليف سفر بن عبد الرحمن الحوالى ص ١٩٧ دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع .

أثر نظرية التطور

ما إن أعلنت نظرية التطور حتى تلقفها أعداء الدين والانسانية ، وبخاصة الصهيونية العالمية . وبدأوا يحاربون بها الدين ويتخذون منها وسيلة لعلمنة الحياة قاطبة والبعد بها عن تعاليم الأديان كافة . مبررين هذا كله بأن الدين وهم من الأوهام . أو خرافة لا أساس لها من الحقيقة .

ومع أن « دارون » لم يقصد من نظريته إنكار الله جل جلاله ، أو مهاجمة الدين . فإنه — على حد تعبير العقاد — كان يأبى أن يوصف بالإلحاد ويحسب نفسه أحيانا « ربانيا » أى منكراً للصادفة ومرجحا لعقيدة الربوبية .

ويؤكد إلى آخر أيامه أن الاستدلال بمذهب التطور على إنكار الإله خطأ كبير وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين[1] .

ولم يقصد دارون أيضا بنظريته أن يفسر خلق الحياة .

يقول العقاد :

أما دارون فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفى وجود الله . ولم يقل إن التطور يفسر خلق الحياة . وغاية ماذهب إليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانية والنباتية . وفى ختام كتابه عن أصل الأنواع يقول :

إن الأنواع ترجع فى أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت على جرثومة الحياة التى أنشأها الخلاق[2] ..

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٧٠ طبعة ثالثة ١٩٧١ بيروت .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧ - ٦٨ .

ومع أن كثيراً من العلماء والباحثين - إن لم يكن كلهم - يعلم أن نظرية دارون لم تخرج على أنها فرض من الفروض - رغم الإضافات التى أضيفت إليها بعد رحيل دارون عن الحياة - وأن هذا الفرض لم يثبت إلى الآن . وبالتالى فلم يصبح حقيقة علميـــة وأغلب الظن أنه لن يصبح فى يوم من الأيام حقيقة علمية .

يقول الأستاذ العقاد :

وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علماً قاطعاً مفروغاً من أصوله وفروعه ، وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته(١) .

ويقول ليكونت دينوى :

من المستحيل أن نتصور الآن كيف بدأ التطور ؟

أكان هناك خلية بدائية أم أنه يبدو من المستحسن القول بأن مادة حية لا شكل لها قد سبق وجودها الخلية الأولى ؟

ثم يقول : نكرر القول هنا بأنه لا توجد حقيقة واحدة أو نظرية واحدة فى يومنا هذا تقدم تفسيراً قاطعاً لمولد الحياة وتطور الطبيعة .

إن سبب - وحتى حقيقة التطور - لا تدخل ضمن دائرة علمنا الحاضر . ولا يمكن لأى عالم فى الأرض أن ينكر ذلك(٢) .

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٧٢ .

(٢) مصير البشرية - ليكونت دينوى - نقلا عن الجفوة بين العلم والدين ص ٤٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٢ .

وقد عرف أحد المعاجم العلمية نظرية دارون بأنها نظرية قائمة على تفسير بلا برهان[1] .

أقول رغم هذا كله فقد استغلت هذه النظرية أبشع إستغلال وتأثر بها الفكر الاوربي قاطبة بل وغير الفكر الاوربي .

---

(٤) الإسلام يتحدى - وحيد خان ص ٥٠ - طبعة ثانية ١٩٧٣ دار البحوث العلمية .

ماركس ونظرية التطور

لقد تأثر كارل ماركس بنظرية التطور فى ميدان بحثه وهو علم الاقتصاد ، ووضع مذهبا يتناول تصورا كاملا للحياة حيث قد وطد أركان التفسير المادى للتاريخ ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله كما يجعل هذا النشاط ماديا بصفة أساسية . ومنبثا عن الكيان الحيوانى للانسان ، فالقوى المادية والاقتصادية هى العنصر الفعال فى تاريخ البشرية .

والدين فى الفلسفة الشيوعية خدعة تاريخية ، فهى تركز الأسباب فى عوامل إقتصادية لأنها تنظر إلى التاريخ فى ضوء الاقتصاد .

وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى النظام البورجوازى الاستعمارى القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه فلندع الدين أيضا يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية إنجلز :

إن كل القيم الأخلاقية فى تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية .

فالتاريخ الانسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها البرجوازيون دماء الفقراء . وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى :

إن الدستور الأخلاق والدين خدعة البورجوازية ، وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها .

ويقول « لينين »[1] :

إننا لا نؤمن بالإله ونحن نعرفه كل المعرفة . إن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم[2] .

وحقيقة العالم — على حد تعبير ماركس — تنحصر في ماديته وفي ظل التفسير المادي للتاريخ لا يوجد : إله ، ولا الوحي ، ولا الرسالات — والدين — في رأي ماركس — هو أفيون الشعوب .

والقيم الأخلاقية في رأيه هي انعكاس للوضع الاقتصادي ، ومن ثم فليس لها وجود أصيل في الحياة البشرية .

* * *

(١) في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الثالث عشر لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر ١٩٢٠ م .

(٢) الإسلام يتحدى — وحيد الدين خان ص ٢٠ .

فرويد ونظرية التطور

وتأثر بنظرية التطور أيضاً «فرويد» وأول ما يبدو من هذا التأثر هو نظرته إلى الانسان على أنه مخلوق أرضى؛ عالمه كله محصور فى هذا النطاق الضيق القريب.

ولكن هذا ليس كل شيء. فقد تأثر بها من زاوية أخرى حين أزال عن الإنسان ما كان يحوطه من كرامة إنسانية. ومن رفعة وشفافية روحانية وذلك على اعتبار أن رعاية الله لهذا المخلوق وتكريمه له خرافة كبيرة نتجت من الخرافة الكبرى المتصلة بخلق آدم.

وتأثر بها من زاوية ثالثة حين تابعهم قوله: إن غرائز الإنسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة له فى سلم الصعود مضافة إليها قدراً من التطور. هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان فأثرت فيه وأنتجت منه الكائن البشرى على مر الأيام.

ومن هنا نجد أن نظريات فرويد هى الامتداد الطبيعى لنظرية دارون أو هى تخصيص لها فى ميدان الإنسان[1].

حياة الإنسان بادىء ذى بدء حياة حيوانية بحتة. فغرائزه — فى زعم فرويد — هى التى تحكمه وتسيطر عليه وعلى نشاطه.

فحياته كلها جنس أو منبثقة عن الجنس. والجنس يبدأ مبكراً جداً لأن مرحلة

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٢٤ — محمد قطب: الطبعة الخامسة ٧٨ دار الشروق.

البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس . وإنما يبدأ من لحظة الميلاد بل يولد الانسان جنساً خالصاً مركزاً فى إهاب طفل حيوان صغير . وكل أعماله تعبير عن طاقة الجنس :. فالرضاعة جنس والإلتصاق بالام جنس :

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس ثم يجد الاب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق . فتنشأ فى نفسه عقدة أوديب ، ومن هذه العقدة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد . وكل القيم العليا فى حياة البشرية .

وهكذا يصر فرويد على أن يفسر النفس كلها بجميع ألوان نشاطها من خلال الطاقة الجنسية بالذات . ويصر أكثر من ذلك - وهذا موضع الخطر - على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة خاصة بأنها إنبثاق جنس . وجنس على وجه التحديد[1] .

وقد نشأت فى أوربا أبحاث فلسفية واجتماعية تقوم كلها على أساس التفسيرات التى قدمها فرويد للنفس الانسانية .

وتحاول أن تثبت أن تقاليد المجتمع - التى يضعها ليحافظ بها على كيانه - هى قيود تحكمية ليس لها مايبررها . وأن روابط الأسرة غل من الأغلال التى ينبغى الفكاك منها لتحقيق السعادة والهناء . ولم تعد تذكر الأخلاق والدين إلا بالحنق والسخط . أو بالهزء والسخرية والاستخفاف .

وانتهى الأمر فى كثير من شعوب أوربا وفى أمريكا كلها إلى تحطيم المجتمع وحل روابط الأسرة والانسلاخ الكامل من تراث الأجيال السابقة كلها من أخلاق وتقاليد .

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشر صـ ٤٦ ومابعدها بتصرف - الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م - دار الشروق - محمد قطب .

وليست دعوة الوجودية المنتشرة فى فرنسا إلا امتداداً سامياً لايحاءات نظرية فرويد. فهى تدعو إلى تحطيم كل قيد يقف فى سبيل تحقيق ذاتية الفرد الكاملة سواء كان هذا القيد من دواعى السماء أو الأرض . فليفعل كل إنسان مايبدو له هو شخصيا أنه الحق . ولو خالف كل ما اصطلح عليه الناس ولو خالف العقل والمنطق أيضا .

فالوجودية ترى أن مبادىء الدين والأخلاق قد أفسدت قيادة البشر . وأن الانسان لم يعد يؤمن إلا بأنه موجود وعليه أن يعدل سلوكه فى كل موقف من مواقف الحياة بمحض اختياره وتقريره الفعلى لمصلحته الحقيقية كفرد وكعضو فى فى المجتمع بدل أن يعود إلى التراث الدينى والأخلاق يستوحى منه سلوكه : ويتمثل هذا السلوك الوجودى فى مسرحية الذباب التى كتبها « سارتر » وفيها يقتل الابن أمه بالاشتراك مع أخته لأنهما رأيا مصلحتهما الشخصية فى ذلك . وأنهما لم استطاعا بعد ذلك أن يستبعدا عنهما عذاب الضمير الذى شبهه بطنين الذباب . لأن راحتهما وسعادتهما متوقفة - فى رأيهما - على قتل هذه الأم .

يقول سارتر :

إن الوجودية ليست دعوة بل تقرير واقع . وإن البشر قد تحولوا إلى وجوديين بضغط تلقائى من الأحداث والفجائع التى إبتلوا بها فى الحرب(١) .

وما الحيوانية الكاملة التى يمارسها الشباب فى أوربا وأمريكا من الجنسين ليتحرروا من القيود إلا أثر سام لإيحاءات فرويد فى مسألة الجنس .

* * *

دوركايم ونظرية التطور

وتأثر « دور كايم » كذلك بنظرية التطور ونقلها إلى مجال تخصصه وابحاثه ..

نقلها إلى علم الاجتماع وقال :

إن الحياة البشرية ذات الصبغة الاجتماعية لا يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى ، وإنما يفسرها وجود العقل الجمعى خارج نطاق الافراد . وخلص من هذا إلى أن الدين ليس فطريا . وكذلك الزوج والأسرة والقواعد الخلقية لا وجود لها فى ذاتها .

لقد أخذ « دور كايم » كثيراً عن دارون :

أخذ عنه بادىء ذى بدء فكرة التطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات لأى شيء . فلا ثبات لخلق أو دين أو فضائل أو قيم . الخ .

وأخذ عنه فكرة القهر الخارجى الذى يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه فيطوره .

وأخذ عنه التفسير الحيوانى للانسان . فهو لا يفتأ يستشهد فى كل حالة بما يحدث فى عالم الحيوان [1] .

أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته . [2]

وإنه لمن الطبيعى جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية

---

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع : تأليف دور كايم ص ١٢٣ - ترجمة د/ محمود قاسم : مراجعة د/ السيد محمد بدوى طبعة ثانية .

التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب ، وذلك لأننا نلاحظ — فى الواقع — أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفراداً تبعاً لطبيعة مساكنها التى توجب عليها الحياة فى جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة(١) .

لقد أخذ دور كايم العالم اليهودى الإيحاء الحيوانى لنظرية داروين ووسع نطاقه ومده مدة واسعة فشمل الحياة كلها تحت ستار من البحث العلمى فى علم الاجتماع وفى جولته الواسعة فى هذا العلم إهتم بأن ينفى الفطرة عن الدين وأن يقول إن الأخلاق ليست قيمة ذاتية ولا هى ثابتة على وضع معين . وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه . ذلك لأن المجتمع — فى رأيه — هو الأصل فى كل الظواهر الاجتماعية وليس الانسان .

إن ما ذهب إليه دور كايم فى مذهبه الاجتماعى الذى يضمنه كتابه (قواعد المنهج فى علم الاجتماع) ليس إلا نظرية وفرضية بأمسا عقله فى ضوء تحديات كثيرة .

منها : التحديات العامة .

ومنها : التحديات الخاصة .

ولكل فيلسوف من ظروفه الخاصة ظل وأثر على آرائه لا ريب فى ذلك .

أما التحديات العامة : فذلك أن (دور كايم) هو ربيب الثقافة الماركسية أو المذهب الماركسى والنظريات المادية ومفهومه معارض تماماً لكل القيم الأساسية التى جاءت بها الفطرة أو صاغتها الأديان فى منهجها الربانى القائم على الفطرة وهو — فى كل دعاواه — يأخذ الطرف الثانى المعارض .

---

(١) التطور والثبات : محمد قطب ص ٥٤ .

فإذا أعلنت الأديان أن الدين فطرة . وأن الأسرة فطرة . أعلن هو عكس ذلك تماما فقال :

أن الجريمة هي الفطرة . لكن الدين والأسرة ليسا من الفطرة في شيء وهو تابع في نفس الوقت للمدرسة التي بناها ماركس في التفسير المادي للتاريخ . فهو واحد من كبار الدعاة إلى إنكار الفرد ومسئوليته ودوره وإعلاء شأن الظاهرة الاجتماعية وتحملها كل النتائج على النحو الذي يؤدي إلى أخطر الآثار التي يترتب عليها إنكار مسئولية الفرد والتزامه الأخلاقي وجزاؤه .

ومن شأن هذا أن يسوغ للأفراد تصرفاتهم ويحررهم من التبعية ويلقيها كلها على المجتمع .

ولا ريب أن هذا الإتجاه معارض معارضة جوهرية لمفهوم الدين الحق والقاعدة الأساسية من قواعد الإيمان .

يقول « دوركايم » :

إن الفرد لا قيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية . وإنما القيم كلها للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية وكلها عبث لا قيمة لها[1] .

ويرى النقاد أن دوركايم هو رسول الماركسية في ميدان العلم الاجتماعي تكفل بنقل آراء كارل ماركس من مباحث الاقتصاد والسياسة إلى مباحث الاجتماع والأخلاق[2]

---

(١) إطار إسلامي للفكر المعاصر ص٩٧ : أنور الجندي — الطبعة الأولى ١٩٨٠ المكتب الإسلامي .

(٢) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ص ١٧٢ ـ أنور الجندي ـ طبعة ثانية ١٩٧٧م دار الاعتصام .

ولا ريب أن نظرية دور كايم فى علم الاجتماع حين تلتقى بنظرية « فرويد » فى علم النفس ونظرية « ماركس » فى الاقتصاد من شأنها أن تشكل إنسانا مضطربا مزعزع الوجدان .

واليهود الثلاثة هم القادة المسيطرون على الفكر الغربى الذى يقدم أو يفرض على أنه هو الفكر العالمى .

لقد تأثرت الحياة الاوروبية كلها بنظرية التطور واصطبغت بصبغتها المادية .

يقول الاستاذ محمد فريد وجدى :

« مذهب « دارون » موضوعه « الفزيولوجيا » كما هو معلوم - فكان المنتظر أن يكون تأثيره محصوراً فى عالم العلم الطبيعى — ولكنه لمساسه بمسألة خلق الإنسان خرج عن دائرة العلم الطبيعى وأغار على الفلسفة العقلية والفلسفة الحسية والعلوم الادبية والاخلاقية وجاوز كل تلك الدوائر حتى التهم العلم السياسى أيضا

وعلى هذه الصورة إنتشر بين الطبقات الاجتماعية حتى وصل إلى عامة الناس ودخل معاملاتهم ومجاملاتهم وصارت مبادئه قاعدة أساسية لأخلاقهم وعاداتهم حتى أصبح عامة الشعوب الاوربية داروينين فعلا وإن لم يحسنوه علما[1] » .

وكان تأثير الثالوث : ماركس — فرويد — دوركايم . خطيرا جدا حيث تضافرت جهودهم واتجهت إلى أنه :

« ينبغى أن تحطم قيود الاخلاق . فهى قيد يعوق التطور ، وقد تقيدنا بها فى الماضى فى المجتمع الزراعى فينبغى أن نطرحها اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور

---

(١) الاسلام فى عصر العلم صـ ٧٦٦ طبعة ثالثة - بيروت سنة ١٩٧٧ - دار الكتاب العربى : محمد فريد وجدى .

(ماركس) أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية وبأن الأخلاق كبت ضار بكيان الإنسان (فرويد) أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية ، إنما هى تتطور بتطور وسائل الإنتاج (ماركس) أو تتطور بتطور حالة المجتمع (دوركايم) .

وينبغى كذلك أن نحطم الدين فهو قيد آخر يعوق التقدم ، وقد ورثناه من أسلافنا فى عماية وجهالة وجمود وتأخر .

نحن اليوم فى المجتمع الصناعى للتطور الذى لا يطيق هذه الخزعبلات (ماركس) أو قد كان هذا الدين يناسب عصر الجهالة السابقة يوم كنا نظن الدين شيئا له قداسة ـ ومنزلا من السماء . قبل أن نعرف أن كبت الجنس ضار منفر (فرويد) أو يوم ظننا ـ خطأ منا وجهالة ـ أنه قدرة إنسانية (دوركايم[1]) .

وهكذا إتخذ العلماء الباحثون لظرية التطور دعامة من الدعامات الأساسية التى يقوم عليها الإلحاد . وهى فى نفس الوقت أحد الأقانيم الثلاثة (المصادفة ـ الطبيعة ـ التطور) التى يحلها الملاحدة محل الخالق جلت قدرته . وينسبون إليها كل ماكان وسيكون .

ونظرية التطور المعروفة من أقوى الأسلحة بل هى ـ إذا استثنينا عامل الشر ـ أقوى سلاح يشهره الملاحدة ويحاربون به فكرة الخالق وكل ما يتصل بعالم الروح[2] .

ومن حصلة أبحاث العلماء وآرائهم العلمية . بدءاً من جاليليو وبيكون . ومروراً بماركس وفرويد . وانتهاءاً بدوركايم ـ حدثت حركات ضخمة فى المجتمع

---

(١) التطور والثبات : محمد قطب .

(٢) ص ٤١ ـ ٤٢ محمد على يوسف : الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : دار الحياة بيروت ١٩٦٦ م .

العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، واتجهت في حملات قاسية على الدين والأخلاق والتقاليد ونفي القداسة عنها وتشويه سمعتها وتشكيك الناس في قيمتها والقيام بهذه الحملات باسم العلم والبحث العلمي مدعما بالتجربة الحسية ورأى الناس أن الكنيسة تقف موقف العداء للعلم والعلماء .

تقول دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رفضت أي نتيجة خالف العلم فيها الانجيل[1] .

ورأى الناس كذلك أن العلم ينتصر دائماً ، وأن الصواب في جانبه ، وأن التجربة تؤيده .

يقول العلامة ، الفرد هوايت هد ، :

ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين[2] .

ويقول أستاذ أمريكي في طب الأعضاء :

لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ[3] .

• • •

(١) صـ ٣٦ المجلد الخامس طبعة ١٩٥٣ م .

(٢) نقلا عن صـ ١٢ محمد على يوسف ـ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين .

(٣) صـ ٣٠ الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان حـ ١ طبعة ثانية ١٩٧٣ ـ دار البحوث العلمية .

وانحازت أوربا إلى جانب العلم وانتصرت له ونزعت عنها سلطان الدين وارتدت رومانية كاملة لا يقف شيء في سبيل نزعتها الرومانية المادية، التي لا تعرف غير الجسد ونزواته ، ولا تؤمن إلا بالواقع المادي الذي تثبته الحواس[1] .

واعتقدت أوربا المنافاة التامة بين العلم والدين وتقرر — في وجدانها — بأنهما عدوان لدودان وضدان لا يجتمعان ، وسرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة والعامة فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ومحوزين بحكم الحاجة لما يرون من خيرات العلم وبركاته مما يتنعمون به من اكتشافاته وابتكاراته وفهموا أن العلم منبع الحياة الحقيقية وملاك السعادة الإنسانية ، وأيقنوا أن الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ، وأن الأديان أزمنة خاصة في تاريخ الانسان — تؤدي وظيفتها ثم تنتهي بانتهاء دورها ، وسينتهي الأمر — كما يكتبون في كتبهم ، بزوال الدين بالمرة[2] .

آمنت أوربا بالعلم وكفرت بالدين ، بل لقد ثار المجددون المتنورون وأصبحوا حربا على رجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب .

وعادوا الدين المسيحي أولا والدين المطلق ثانيا ، وبدأت الحرب بين العلم والدين ، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان وأن العقل والنظام والدين ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني .

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام - محمد قطب ص ١٦ .

(٢) الاسلام في عصر العلم - محمد فريد وجدي - طبعة ثالثة ١٩٦٧ بيروت -

وكان أحرار العلماء إذا ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة وحياة مقطبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة وعقول سخيفة بليدة — إشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم[1] .

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٩٤ - ١٩٦ لأبي الحسن الندوي - طبعة عاشرة ٧٧ م - دار الأنصار .

المادية تسيطر على اوربا

وقد سيطر المذهب المادى — كنتيجة للعلمانية وجهود اليهود — على الفكر الغربى كله ، وأصبح اليوم هو أساس الفكر الغربى الليبرالى والفكر الماركسى جميعاً ، وأصبح التفسير المادى للتاريخ مفهوما شاملا معترفاً به .

وأصبحت هناك معارضة شاملة للروحية والمعنوية والمثالية ، وأصبح التفسير المادى للسلوك والحياة والمجتمعات والتاريخ هو الأساس . بل إن المادية أعلنت أن العقل صفة طارئة لبعض حالات المادة ، وأن العقل يولد من المادة فهو مدين لها ، وأصبح الفكر الغربى فى قمة ماديته يؤمن بأن النداء الجنسى والنداء الخاص بالطعام هما اللذان يحكمان البشرية كما أن المادية تجحد وجود الخالق وتنكر الروح والبعث والجزاء .

ولقد كان لهذا كله أثره البعيد فى التربية والأخلاق والمجتمع والاقتصاد حيث كانت كلمات الحرية والتحلل والإباحة والربا والدعوة إلى السعادة واللذة والتمتع بالحياة والانطلاق إلى عالم الشهوات ، بدعوى أنه لا توجد حياة أخرى بعد هذه الحياة .

وحتى الأدب نفسه لم يسلم من مؤمرات اليهود .

يقول « بوكهارت » :

إن الأدب العالمى قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود ، ولكن شرهم أكثر من نفعهم وإثمهم أكبر من خيرهم فإن « هينة » أفسد أخلاق باريس و « أزوفالد » أنذرنا بقرب زوال الحضارة .

أما « فرويد » فقد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الاغريقية ، ومجد الغريزة وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسديهما ما شاء لهما الشبق الكامن فى خبايا ضلوعهما فالتهتك الجنسى لا حد له فى رأيه ، والولد يغار على أمه من أبيه ويود لو يموت الولد ليحل محله (مركب أوديب) .

أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس .

« وتوماس مان » برر عشق الذكور (قصة الموت فى البندقية) ووصف مرض الصدر بحيوانات مفترسة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للفساد ، فضحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء [قصة الجبل المسحور][1] .

ولقد وصفت كاتبة أمريكية فى مؤتمر برلين هذا الأدب بقولها :

إن الأدب الغربى مرآة فى سقف بيت الدعارة[2] .

* * *

وهكذا لم تجد أوربا من العلمانية وإبعاد الدين عن كل شأنه من شئون الحياة غير الإلحاد والفساد والرذيلة ، حتى أضحت مدنيتها مادية بحتة وأصبحت لا تطاق ، ولنسمع إلى تعبير أبى الأعلى المودودى وهو يصور شجرة العلمانية والمادية وتفرعها إلى كل فكر أوربى إذ يقول :

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة — العلمانية والمادية — قد مقتوها وأصبحوا يتذمرون منها ، لأنها خلقت فى كل ناحية من نواحى حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة ، ولا يقصلون فرعا

---

(١) الإسلام والمذاهب الهدامة - أنور الجندى ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة - أنور الجندى ص ١٨٢ .

من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوكة بالشوكة .

إنهم حاربوا الرسمالية فنجمت الشيوعية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية. أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع، فنبثت حركة تذكير النساء وحركة منع الولادة .

أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية ، فاشرأبت حركة العصيان والجناية فلا ينتهي شر إلا إلى شر ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه .

ولا تزال هذه الشجرة المادية والعلمانية — تثمر لهم شرورا ومصائب حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحا يشكو كل جزء منه أوجاعا وآلاما ، وأعيا الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع ، فالأمم الغربية تتهلل ألما ، قلوبها مضطربة ، وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة ؟

إن الأكثر من رجالها لا يزال يتوهم أن منبع المصائب فى فروع هذه الشجرة فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيعون أوقاتهم وجهودهم فى قطعها .

إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد فى أصل الشجرة . ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد .

ثم يقول : وفيهم جماعة قليلة من العقلاء ، أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا أعواماً طويلة فى ظل هذه الشجرة، وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم ، كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة وكلا الفريقين فى النتيجة سواء .

إنهم يتطلبون شيئا يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ، ولكنهم لايعلمونه ولا مكانه[١] .

والحقيقة أن المادية إذا انتشرت بين الأمم وتمكنت منها قضت على كل خير فيها وباعدت بينها وبين الفضائل وبثت في أرجائها كثرة من المفاسد والشرور .

وها هو جمال الدين الأفغاني يوضح أضرار المذهب المادي على المجتمع وذلك بذكر أمثلة من تاريخ الجماعات المختلفة التي سيطر عليها هذا المذهب في فترة من تاريخ حياتها ، ويرى أن المذهب الطبيعي المادي قد برز في صور متعددة على النحو الآتي :

(أ) مذهب (أبيقور) في الشعب الإغريقي[٢] .

(ب) مذهب (مزدك) في الشعب الفارسي[٣] .

(حـ) مذهب (الباطنية) في الجماعة الإسلامية[٤] .

(د) مذهب (فولتير وروسو) في الشعب الفرنسي[٥] .

(هـ) مذهب (العصر الجديد) في تركيا[٦] .

(و) مذاهب (الاشتراكية والقومية والاجتماعية) في أوربا وخاصة في

---

(١) المودودي في تنقيحات مقالة أمم العصر المريضة ص ٢٥ - ٢٩ وانظر أبو الحسن الندوي - ماذا خسر العالم من إنحطاط المسلمين ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) الرد على الدهريين ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٩٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٦٣ .

الشعب الروسى[١] .

ويقول جمال الدين شارحا ذلك :

« إن حياة الشعب الاغريقى فسدت بإباحية المذهب الابيقورى ، وكذلك فسدت الحياة فى الشعب الفارسى عندما تأثرت بمزدك .

والسلوز[٢] عندما دخلت عليهم الباطنية[٣] ، ثم يقول :

والفرنسيون فى القرن الثامن عشر كانت لهم أخلاق فاضلة قوامها الترابط وعدم الانحلال حتى ظهر فولتير وروسو وسخرا من الدين والإله ، فبدأ التحلل على أشده ، وآراؤهما هى التى أضرمت نار الثورة الفرنسية ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها ، فاختلفت بها المشارب وتباينت المذاهب .

وقام على مذهب فولتير وروسو مذاهب (كومن) الاشتراكية[٤] . ولو تدارك الأمر أرباب العقائد النافعة لنسفت الاشتراكية على أديم فرنسا .

(١) المصدر السابق ص ٨٦ .
(٢) الرد على الدهريين ص ٦٧ — انظر الفكر الإسلامى د/ محمد البهى ص ٨١ .
(٣) وذلك فى القرن الرابع الهجرى حيث أفسدت حياتهم .
(٤) كان الافغانى يعبر عن الشيوعية بالاشتراكية . انظر ص ٨٣ من الفكر الاسلامى الحديث د/ محمد البهى .

أثر المادية فى التربية

سيطرت المادية على الحياة فى أوربا وكانت التربية فى الغرب هدفاً من أهداف الإلحاد المادى والهدم اليهودى فتحولت من الفكر المسيحى إلى الفكر المادى وتبلورت فى صورتها النهائية فى مفاهيم « ديوى » و « دوركايم » وعلى ما قرره « فرويد » ومدرسته فى النفس والجنس ، وهى مفاهيم تقوم فى أساسها على حرية التربية وإطلاقها من كل قيد ورفع الرقابة والتوجيه عن الأجيال حتى فى أكثر المراحل تعرضا للأخطار .

ولقد نجحت دعوات تحرير التربية من سلطان الدين فى أوربا إلى فصل الدين عن التعليم نهائياً والحيلولة بين رجال الدين وبين مناهج التربية والتعليم فى نفس الوقت الذى أضيفت فيه الفلسفات المادية من أجل تخريج أجيال لا صلة لها بالدين أو القيم الروحية إطلاقاً، وتشكيل مفاهيم الأخلاق على النحو الذى يفترض تطورها بتطور المجتمعات هذا بالإضافة إلى تدريس الجنس وإذاعة الأدب المكشوف ونشر قصص الغرائز وكل ما يتصل بهدم الأخلاق والقيم والمثل العليا .

ويتحدث الدكتور فاضل الجمالى عن فلسفة التربية الغربية فيقول :

إن نظم التربية الغربية قد تكون فى الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو إنشطارية فهى فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة .

فالدراسات العلمانية مثلا قد تؤدى بسهولة إلى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية .

ونحن نعتقد أن الفلسفة الانشطارية أو الثنائية فى التربية الغربية تصبح لبنة فى

« الفصل الثالث »

نقد نظرية التطور

أ ـ مقدمة :

نستطيع القول بأنه لم يحدث خلاف أو اختلاف في العصر الحديث مثل الذي حصل بالنسبة لنظرية التطور العضوي ، فهذه النظرية لاقت من الانتقادات الكثير في الغرب والشرق على السواء . حيث نقدها كثير من المتدينين والفلاسفة والعلماء ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وسواء أكانوا مؤمنين أم غير مؤمنين .

وهذا ـ في الواقع ـ أمر يدعو إلى التفكير والتأمل ، فمادامت المسألة وهي في أصلها علمية ، لم يتفق عليها حتى الآن ، فكيف ـ إذن يسارع البعض بالقبول لها ، بل ويحاول تأييدها بنصوص دينية قد لا تقبل مثل هذا التأويل ؟

على أية حال سوف نعرض لبعض هذه الانتقادات الموجهة إلى نظرية التطور العضوي من الغربيين والشرقيين سواء بسواء .

ب ـ انتقادات عامة :

إن أول نقد يوجه إلى النظرية الداروينية هو أنها ليست حقيقة علمية ، بل مجرد فرض وتخمين ، إذ إنها ليست مذهبا علميا مبنيا على التجربة الحسية ، وإنما هي مبنية على الفرض والتخمين لأن تولد الأنواع بعضها من بعض لا يكون في متناول الحس والمعاينة ، وليست معاينة الحفريات المستخرجة من تحت

الأرض ، المتوسطة بين نوعين موجودين من الحيوان معاينة التوالد ، ولا معاينة كونها واسطة في التوالد ، لاحتمال كون كل من الواسطة وطرفيها نوعا مستقلا مخلوقا برأسه ، وليس من حق المجرب أن ينتقل من التشابه المحسوس إلى التوالد غير المحسوس مهما وجدت الوسائط المقربة بين المتشابهين ، فإن انتقل كان خارجا عن حدود التجربة التي يدعي الوقوف عندها .(١) .

كما وصفت نظرية التطور بأنها لا تقل عن أي قصة خرافية حافلة بأغرب المخلوقات كالغيلان والقنتورات (كائنات خرافية نصفها رجل ونصفها فرس) والسيرانات(٢) (كائنات خرافية لها رءوس نسوة وأجساد طيور) . بل يبدو أن النشوئي هاو للقصص الخرافية التي تغلب عليها صفة التحولات الفورية التي تحدثها عصا الساحر في القصص الخرافية ، فإن التحولات هنا تسير بسرعة القواقع . فالتغيرات الإعجازية التي نفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية أمور عادية جدا في نظرية التطور(٣) وأحيانا توصف هذه النظرية بأنها إيمان أعمى ممتزج بالسذاجة والخرافة .

ويقول الدكتور جوستاف جوليه « إن مذهب لامارك » ومذهب « دارون » يستويان في القصور ، فإنهما لا يفسران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية ، فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التي ليست له ، ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور ، وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة ، وكيف تصل الدودة شيئا فشيئا إلى إيجاد أجنحة

(١) صبري (مصطفى) : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مطبعة الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٥٠ جـ ٢ ص ٢٨٣ .

لجسمها تصلح له حياة هوائية ؟

ثم يقول : يكفي لإبطال النظريات الداروينية أن يتأمل الإنسان حشرة الشرنقة ، فإنها ظهرت في أقدم عصور الحياة الأرضية وثبتت أنواعها في جميع الأحوال ، فهي تناقض ما ذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة ، وتناقض التطور بفعل العوامل الخارجية ، فإنها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية إلى حشرة طائرة ولا تأثير عليها من الخارج ، كما أن الهوة عميقة بين الحال الأولى وهي الدودية ، والحال الثانية وهي حال الحشرة[١] .

ولقد وصف مذهب التحول بأنه يؤدي إلى انحطاط وانقراض الحياة من على ظهر الأرض ، الأمر الذي يجعل نظرية التطور عاجزة عن التدليل على حدوث أي ارتقاء تقدمي .

ومن الانتقادات التي وجهت إلى نظرية التطور بصفة عامة أن هناك ثغرات في السلسلة النظرية المزعومة ، ولاسيما بين الإنسان والحيوان من جهة ، وبين المركبات الكيميائية والكائنات العضوية من جهة أخرى . كذلك فإن الأدلة المباشرة ، أي الأمثلة التي يمكن أن نلاحظها لحدوث تعديل فعلي ، قليلة جدا . ومن هنا فإن النظرية تبقى بأسرها بلا إثبات . وأيضا فإنه لا يستطيع من يدافع عن نظرية التطور أن يقدم تفسيرا لأصل الحياة ليس عليه اعتراض . كما أن القائلين بنظرية التطور يقومون بتبسيط مسرف لوقائع هي في ذاتها شديدة التعقيد ، فكلمة التطور تستخدم للدلالة على عوامل كثيرة حيث لا تكون في النهاية سوى قناع يخفي جهلنا بهذا النمو المتدرج[٢] .

وأخيرا توصف نظريات التطور بأنها عقائد لا قيمة لها سوى سمعة الأساتذة

---

(١) هيكل (إرنست) : فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء ص ٤٥ .

(٢) إمام (د. إمام عبد الفتاح) : مدخل إلى الفلسفة ص ٢٤٢ — ٢٤٣

(٣) ص ٢٢٥ وما بعدها .. محمود عزام : نظرية التطور عند مفكري الإسلام ط ثانية ١٩٨٦م دار الهداية

الذين أفادوها في شكل الدساتير ، كما يقول جوستاف لوبون[1] .

ويقول المعترضون على نظرية التطور أن الكون قائم على التناسق والتوازن ، فالله ـــ سبحانه ـــ أراد في تنظيم أجزاء العالم الفردة أن يراعي كل واحد منها عند تنظيم غيره ، وأن يراعي غيره في تنظيمه فيتوازن الجميع ، ففي كل جزء من أجزاء العالم الفردة تاريخ العالم بتمامه ، كما يرى « ليبنتز »[2] .

جـ ـــ نقد أدلة التطور :

لقد وجه إلى أدلة التطور كثير من الانتقادات ، فمن هذه الانتقادات التي وجهت إلى أدلة التشريح المقارن أن علماء التطور يستنتجون من مقارنة الهياكل العظمية والعضلات والأعصاب في كل الأنواع أنها تنتمي جميعا إلى أصل واحد ، هو الحيوان الوحيد الخلية ، ومن ثم فإن هذه الخلية الواحدة ما هي إلا صورة مصغرة لأي هيكل عظمي أو عضلة أو عصب ، ومن ثم أيضا تلفيقهم لعملية الارتقاء الطويلة من الخلية الواحدة إلى الإنسان . إننا لا نستطيع أن ننفي التشابه بين بعض الأشكال والتكوينات ، ولكن هذا التشابه فرضه الخالق سبحانه وتعالى بما أراده لبعض مخلوقاته من تشابه في طريق المعيشة والغذاء . بل إن هناك آيات في القرآن الكريم تؤكد التماثل والتشابه بين الإنسان والحيوان من حيث التركيب فعبر عن هذا بقوله : « أمم أمثالكم » ونص على التشابه بين الكائنات بقوله « متشابها وغير متشابه » .

ولكننا إذا قبلنا بنظرية التطور القائلة بانحدار الإنسان من أصل مشترك بينه وبين القرد ، فإننا نستطيع أن نضيف أن العصفور قد انحدر من النسر ، لأن كليهما مكسو بالريش ، وأن الكلب قد انحدر من الحمار لأن

---

(١) صبر (مصطفى) : موقف العقل والعلم والعالم . جـ ٢ ص ٢٨٦ .
(٢) المرجع السابق ـــ جـ ٢ ص ٢٨٥ .

لكل منهما أربعة أرجل ، وأن البرغوث قد انحدر من الضفدعة والضفدعة من القنغر لأن كلا منها يستطيع القفز .

لقد تمادي بعض التطوريين في الدفاع عن نظريتهم إلى درجة اللجوء إلى الغش . فقد استخدم « إرنست هيكل Ernist Haeckel » رسوما للتدليل على التماثل بين الجنين البشري والحيوان ، ولكنه اعترف فيما بعد بأن عددا من رسومه كان تزويرا محضا ، كما اعترف بأن مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا هذه الخطيئة .

ويعلن بعض العلماء أنه لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره . إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة . لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن . ويعترف « الكونت دي نوي » بأن كل مجموعة وكل فصيلة تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة ، لأننا لم نعثر على أي شكل انتقالي ، ومن المستحيل أن تنسب أي مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم[1] .

أما فيما يتعلق بنقد دليل علم الأجنة ، فإن أكثر التطوريين جرأة يتصور أن الجنين البشري يمر بكل مراحل التطور الحيواني ، أي من الخلية الواحدة إلى الإنسان ، وهم يفترضون أن الشهور القلائل التي تنقضي بين الحمل والولادة تغطي ملايين الأعوام من الوجود والتطور : من بويضة إلى سمكة إلى زاحفة ، إلى ثديية ، إلى قرد ، ثم إلى طفل .. وطبيعي أن أول سؤال يقفز إلى الذهن هنا هو : إذا كان من الممكن أن يحدث هذا في خلال تسعة أشهر ، فلماذا استغرق حدوثه ملايين السنين من قبل ؟ إن هذه النظرية الغريبة التي قدمها

---

(١) العاباني (السيدة منوة علي) : مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين ص ١٢ — ١٤ .

« إرنست هيكل » تقول إن تاريخ الجنين هو إعادة لتاريخ الأنواع . ومعظم التطوريين لا يؤمنون بها . إنهم يحذفون المراحل العديدة ويحتفظون بثلاث فقط هي : السمكة والذيل والشعر .

إنهم قد لاحظوا شقوقا شعيبية في الجنين . ولكن الحقيقة هي أن هذه الثنايا تتكون مع نمو الجنين ، فهناك التجاويف السمعية والجزء الأسفل من الفك وجزء من الرقبة . أما ما يسمونه ذيلا فإنه في الواقع العمود الفقري جنبا إلى جنب مع الأمعاء التي تنتهي بالفتحة الشرجية . فهل هناك حيوان يفرز فضلاته من طرف ذيله ؟ أما ما يدعونه شعرا ، فإن ذلك الزغب المتناهي الدقة والنعومة الذي يكسو الجنين ويسقط عند الولادة لا يمكن مقارنته بتلك الفروة الغليظة الخشنة التي تغطي أجساد الحيوانات . لقد اعترف « أرثر كيث » بأننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميزة لأسلافه ، من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين في كل مراحل تكوينه خابت آمالنا . فالجنين لم يكن قردا في أي من مراحله[1] .

ولقد اعترف « هيكل » رسميا بتزوير بعض الصور التي تصور المراحل المختلفة للجنين ، وذلك في مقالة كتبها في ديسمبر سنة ١٩٠٨ تحت عنوان « تزوير صور الأجنة » ، واعترف أيضا بأن مئات العلماء شاركوه في هذه الجريمة ، فإن كثيرا من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة والمعول عليها مزور مثل تزويره تماما لا يختلف عنه في شيء[2] .

ومن الانتقادات التي وجهت إلى دليل الأعضاء الأثرية الذي يقول بأن بعض أعضاء الإنسان تمثل بقايا أعضاء كانت ضرورية لأسلافه ولكنها أصبحت

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ — ١١ .

(٢) الجوهري (الشيخ طنطاوي) : الجواهر في تفسير القرآن جـ ٢ ص ٤٩ .

أدلة وجود الله تعالى

ان أدلة وجود الله جل جلاله كثيرة وكلها تنطق بوجود عظمة الخالق سبحانه وتعالى وهذه الأدلة متنوعة واليكم بعضها .

أولا الأدلة العقلية عند المتكلمين

لقد استدل العلماء على وجود الله تعالى بأدلة عقلية لا يستطيع عاقل أن ينكرها أو يعاندها ومن هذه الأدلة ما يأتى .

أ ـ قانون الحدوث : ـ

لقد ثبت اليوم وبدون شك حدوث سائر الكائنات الحية ومن آخرها عهدا بالحدوث الانسان ، كما قرر هذا علماء الكون وطبقات الأرض . فالعالم حادث لأن الشيء الواحد لا يكون قديما وحديثا فى آن واحد كما لا يكون بعضه قديما والبعض الآخر حادثا ، لذ القول بهذا يوجب تناقضا عقليا لا يصح ولا يقبل فى قضايا العقول السليمة وإذا سلمنا بحدوث العالم كله ـ وهو مسلم ـ حتى عن الطبيعيين أنفسهم فانه لا انفصال حينئذ من التسليم بوجود علة كافية لاحداثه ، اذ وجود معلول وهو الحدوث بدون علة يوجب تناقضا عقليا لا يصح لا طباق العقول السليمة على رفضه وعدم قبولـــــــه .

---

(١) ص ٤٩ وما بعدها من عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى طبعة ثالثة عام ١٩٨٢ دار الشروق .

هذا وما فى العالم الحديث من ابداع ونظام وتدبير يوجب عقـــلا أن تكون العلة التى ترتب عليها حدوث العالم علة كافيه ذات قدرة وعلم وارادة وقصد ، وحكمة وتدبير ، كما يوجب أن تكون العلة واجبه الوجود لذاتها بحيث لا يتصور افتقارها الى علة أخرى لئلا يلزم الدور والتسلسل وهما مطلان فى حكم العقول .

وأخيرا فالعلة الكافيه التى وجب عقلا أن توجد وأن تكون واجبه الوجود هى الله الخالق المدبر الحكيم ذو الاسماء الحسنى والصفات العليـــا رب العالمين واله الأولين والآخرين .

وبهذا القانون يستدل علماء الكلام على وجود الله جل جلاله ووجـــوب الايمان به ربا والها ، ووجوب عبادته بفعل ما يحب وترك ما يكره ، طلبـــا لرضاه ، والسعادة فى جواره الكريم يوم لقاء بعد فناء هذا العالـــــم الحديث وانتهائــه .

ب - قانون النظـــام

ان التأمل فى الكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى لا مجـــال لانكارها ، أو تجاهلها والاغضاء عنها ، أو الغض من شأنها الا وهى هذا النظام الدقيق ، العجيب الذى ربطت به أجزاء الكون كله من الذرة الــى المجرة ، هذا النظام المدهش المحير للعقول الذى يحيل العقل البشرى السليم أن يكون ناتجا عن صدفه وتلقائية ، أو عن كيمائية أو تكون نتيجــة

للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم المغرضون المخدوعون انه لمن المستحيل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله من غير ذي اراده وقصد وعلم وحكمة وتدبير ، ان نظرة الى السماء الى خلقها وتكوينها ، الى الاحكام والاتقان فيها ، الى سعتها وعدد نجومها ومواقعها ، الى الافلاك الدائرة فيها الى ضوء شمسها ونور قمرها ، هذه النظرة الفاحصة الشاملة تجعل الانسان العاقل يجزم ويسلم بوجود اله عظيم متصف بصفات الربوبيه ونعوت الالوهية . ونظرة واحدة كذلك الى الأرض وما بها من جبال ووديان وسهول وأشجار وانهار وأثمار وما عليها من اختلاف البشر لونا ولسانا تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع انكارها ولا اخفاءها أو جحودها وهى أن وراء هذا الخلق والابداع خالقا ، مبدعا عليما ، حكيما وفى هذا المعنى يقول الحق تبارك وتعالى (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) (١)

---

(١) سورة ق : ٦ ــ ٨ .

ثانيا : دليل الفلاسفة على وجود الله تعالى

اذا كان المتكلمون قد استدلوا بالحادث على المحدث أو بالخلق على الخالق فان الفلاسفة الالهيون قد استدلوا بما يعرف عند العلماء بدليل الامكان حيث قالوا :-

إن الموجود لا يخلو من أن يكون واجبا أو ممكنا ، والواجب ما كان وجوده من ذاته ، والممكن ما كان وجوده من غيره فهو في نظر العقل ما يقبل الثبوت والانتفاء والوجود والعدم لذاته وحينئذ فلا بد له من مؤثر يرجح جانب الوجود على جانب العدم ، هذا المؤثر اما أن يكون واجب الوجود بذاته أو ممكن الوجود ، فان كان واجب الوجود بذاته ثبت وجود الواجب وهو المطلوب .

وان كان ممكن الوجود احتاج الى علة ترجح وجوده على عدمه ، وتسلسل الممكنات الى غير نهاية ممتنع اذ لابد من الانتهاء الى علة غير محتاجة الى علة أخرى توجدها هذه العلة - عند الفلاسفة - هي (واجب الوجود) أي الله جل جلاله ، وفي هذا يقول الفيلسوف المسلم الرئيسي ابن سينا (١)

(لاشك أن هنا وجودا ، وكل وجود فاما واجب أو ممكن ، فان كان واجبا فقد صح وجود الواجب وهو المطلوب .

وان كان ممكنا فانا نوضح ان الممكن ينتهي وجوده الى واجب الوجود ....

ثم ينهي ابن سينا سلسلة الممكنات الى علة واجبة الوجود ، اذ ليس لكل ممكن علة ممكنة بلا نهاية

---

(١) ص ٢٣٥ النجاة : طبعة ثانيه ١٩٣٨ م

ثالثا : أدلة القرآن الكريم :

دليل الخلق

لقد خلق الله هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه ، وبين الله — فى كل ما خلقه مظاهر قدرته وكبير حكمته وعظيم رحمته ولذلك كان أول آية يحملها الوحى الى النبى عليه السلام هى قول الحق جل جلاله (اقرأ باسم ربك الذى خلق) (١) ثم يوجه القرآن الكريم نظر الانسان الى كيف أبدع الله هذا الكون : يقول تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) (٢)

فالسماء المرفوعة بدون أعمدة ترونها والكواكب الدائرة فى أفلاكها والقوانين التى تحكم الروابط بينها والسنن التى وضعها الله فى هذا الكون وفى جميع حوادثه وظواهره وكائناته من أصغر ذرة الى أكبر جرم تنطق بأن الله قد خلقها وسيرها بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى شئ حدود ، فيختل توازنه أو يخل بنظام غيره مما جاوره أو قابله أو تأثر به أو أثر فيه ، كل ذلك فى فضاء لم يدرك علم الانسان سعته ولم يقف الا على القليل من أسراره .

---

(١) العلق : ١
(٢) البقرة : ١٦٤ .

من الذي نظم هذا الكون وأحسن خلقه وأودع فيه أسراره وسنن اكتشافها
ثم جعل الأرض آية من آيات خلقه .

الأرض وما يحيط بها من هواء وما يعلوها من سحب وما يدور حولها من شمس
أشعتها منتشر في ارجاء الدنيا قاطبة وما فيها من جبال جدد بيض وحمر مختلف
ألوانه وغرابيب سود وما بها من معادن متنوعة من ذهب ونحاس وقصدير وما
شابه ذلك ثم ما في بطنها من زيت اللهب وما يحتاج اليه الانسان في شئون
حياته ثم هل رأيت أيها القارئ ما في هذه الأرض من جنات وحدائق وعيون .
وبحار وأنهار وأشجار : انظر : هذا نخيل بثماره وهذا كرم بأعنابه وفي
الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى
بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم
يعقلون(1) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج
تبصرة وذكرى لكل عبد منيب(2) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا
فيها من كل شيء موزون(3) ان هذا الكون وجميل تنظيمه وما به من نظام وابداع
خلقه يجعلنا نفكر في بحث أسراره وعجائبه وما فيه من قوانين وقواعد ابداعه
وآيات اتقانه لابد ان يوجه هذه النظرة سرا ولكن في الوقت نفسه تصل
الى حقيقة لامحيد عنها الا وهي أن لهذا الكون مدبر يدبره وما وراء أسراره

---

(١) سورة الرعد : ٤

(٢) سورة : ٧ـ٨

(٣) الحجر : ١٩

وخفاياه واحاط به احاطه قدره منزهة عن العي والعجـــــز •
أجل لابد لهذا الكون من موجد أراده على هذه الصوره البديعه
ولابد لهذا الوجود من خالق وهو ما ينبغى أن يتوجه اليه الانسـان
بكليته ذلك لأن النفس تحن الى خالقها وموجدها نحن الى من يفيض
بالمعرفة على المؤمنين : هؤلاء الذين يعجزون عن ادراك كنهه أو ــ
وصف عظمته اذ كيف نصف من لا مثيل له ليس كمثله شئ [1] وهو السميـــع
العليم ولكى تدرك الدقة المتناهية والتقدير الحكيم فى كل ما خلـــق
الله من السموات والارض وما فيها وما بينها وما حولها اقرأ معـــى
هذه الحقائق العلمية العجيبة التى ذكرها صاحب كتاب الله جل جلاله [2]
حيث يقول :

١ ـ لو كانت قشرة الارض أسمك مما هى عليه بمقدار بضعة أقـدام
لامتص ثانى أكسيد الكربون والأوكسيجين ولما أمكن وجود الحياة •

٢ ـ ولو كان الهواء أدق ارتفاعاً مما هو عليه : فان بعض الشهـاب
التى تحترق بالملايين كل يوم فى الهواء الخارجي كانـــت
تضرب فى جميع أجزاء الكره الأرضية وكان فى امكانها أن تشعل
كل شئ قابل للاحتراق •

٣ ـ ولو أن شمسنا أعطت نصف اشعاعها الحالي لكنا تجمدنا ولـو
أنها زادت بمقدار النصف لكنا رماداً منذ زمن بعيد •

---

(١) ص ٦٠ ـ ٦١ من ضوء جديد على جوهر التوحيد القسم الأول للمؤلف •

(٢) الاستاذ سعيد حوى ص ٣٨ ـ ٣٩ نقلاً عن ص ٤٥ ـ ٤٦ من

٤ - ولو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ ٪ من الهواء بدلا من ٢١ ٪ فان جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضه للاشتعال - لدرجة أن شرارة في البرق تصيب شجرة لابد أن تلتهب الغابه كلهـا ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠ ٪ لتعذر أن يكون التمدن الانسانـي على ما هو عليه اليوم .

٥ - ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم عليها حياة ، ولـولا امواج والبحار والمحيطات لما كانت حياة . ولولا أن الماء يتبخـر بشكل يخالف تبخر الثلج لما كانت حياة ، ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .

٦ - ولو كانت الالكترونات ملتصقه بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضـه فأين يمكن أن يكون الانسان وغيره ؟

٧ - ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

٨ - ولولا الجبال لتأرجحت الأرض ، ولما كان لها على هذه القشـرة الصالحة للحيـاة .

فقل لي بربك هل حدث هذا كله بميزان وحكمة وتقدير وعلم شامـل أم حدث بالصدفة وتطور الصدفة واستمر بالصدفة ؟؟؟

٤ — ولو كان الاوكسجين بنسبة ٥٠ % من الهواء بدلا من ٢١ % فان جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضه للاشتعال — لدرجة أن شرارة في البرق تصيب شجرة بعد أن تلتهب الغابة كلها ولو كانت نسبة الاوكسجين ١٠ % لتعذر أن يكون التمدن الانساني على ما هو عليه اليوم .

٥ — ولولا المطر لكانت الارض صحراء لا تقوم عليها حياة ، ولولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة . ولولا أن الماء يتجمد بشكل يخالف تجمد الثلج لما كانت حياة ، ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .

٦ — ولو كانت الالكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الارضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الانسان وغيره ؟

٧ — ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

٨ — ولولا الجبال لتناثرت الارض ، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

فقل لي بربك هل حدث هذا كله بميزان وحكمة وتقدير وعلم شامل أم حدث بالصدفة وتطور الصدفة واستمر بالصدفة ؟؟؟

تعالى الله عما يقول المفترون علوا كبيرا ، ومن هنا كان القرآن الكريم يوجه الناس الى التفكير فى قضية الخلق كى يؤمنوا بالخالق جل جلاله (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) (١) (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) (٢) (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) (٣) (أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) (٤) (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم) (٥) .

ثم اقرأ معى هذه الاية الكريمة (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) (٦) ان الاية تتحدث عن الذين يتأملون ويفكرون فتأملهم فى خلق السموات والارض بما اشتملتا عليه من آيات دالة على قدره موحدها أدى ثمرته المطلوبه كما رسمته الاية الكريمة

---

(١) سورة الطور: ٣٥ .
(٢) سورة الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ .
(٣) سورة الواقعة ٥٧ ـ ٥٩ .
(٤) سورة القيامة ٣٦ ـ ٤٠ .
(٥) النازعات ٢٧ ـ ٣٢ ـ
(٦) آل عمران ج ٤ ص ١٩٤ .

اذ رتبت النتائج على مقدمات التفكر دون فاصل بينهما ، فتفكرهم دعاهم الى ذكره تعالى في كل حاله من حالاتهم ، قياما وقعودا وعلى جنوبهم ثم علموا أن هذه المخلوقات لا يمكن أن توجد عبثا (ربنا ما خلقت هذا باطلا) فنقلهم ذلك التفكر الواعي في هذا الكون وفي بديع صنعه الى الايمان بالله وما وراء هذا العالم الشاهد وهذه الحياة الحاضرة ولذلك طلبوا من ربهم وخالقهم وقايتهم من عذاب النار خوفا من الخزى والعار (سبحانك فقنا عذاب النار) .

يقول صاحب كتاب في ظلال القرآن به تفسير هذه الآية معقبا هذه هي طريقة المنهج الرباني في التوجيه للانتقال من مرحلة التأثر الوجداني بالتفكر والتدبر في خلق الله الى مرحلة العمل الايجابي وفق هذا التأثر تحقيقا للمنهج الذي أراد الله) (١) .

---

(١) سيد قطب ج ٤ ص ١٩٤ .

ظاهرة الحيـــاة

من الظواهر التى لفت القرآن النظر اليها والتى تدل على وجود الله تعالى ولا يشاركه فيها أحد من خلقه ظاهرة الحياة والموت : فلم يزعـــم أحد من البشر أنه يستطيع أو أنه استطاع أن يخلق شيئا . هذه حقيقـــة يقررها القرآن الكريم فى قول الله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . مــا قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز) (١)

ان ظاهرة الحياة والموت التى يختص بها قيوم السموات والأرض لأقـــوى الأدلة على وجود الله وقدرته وعظمته واقرأ معى فى هذا المجال قول الحـــق تبارك وتعالى (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخـــرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون) (٢) وقوله جل جلاله (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير الذى خلق الموت والحياة) (٣) وقوله سبحانه وتعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنـــزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كـــل شئ قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب (٤) .

---

(١) الحج : ٧٣ — ٧٤ .
(٢) سورة الانعام : ٩٥ .
(٣) الملك : ١ — ٢ .
(٤) آل عمران ٢٦ — ٢٧ .

يقول الفخر الرازى : ودليل الاحياء والاماته دليل متين قوى ذكـــره الله سبحانه فى مواضع من كتابه كقوله (ولقد خلقنا الانسان من سلالـــة من طين) وقوله (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفــل سافلين) .

ويقول صاحب فى ظلال القرآن فى تفسير قوله تعالى (ان الله فالـــق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) انها المعجزة التى لا يدرى سرها أحد فضلا على أن يملك صنعها أحد . . . وتقـــف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما عرفتـــه من خصائصها وأدوارها . . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الانسان الأول تدرك الوظيفة والمظهر وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية فـــى طريقها . . . لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة على غير أنها من خلق الله . . . ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة فى أوربا (كأنهـــم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسيـــر نشأة الحياة بدون التجاء الى الاعتراف بوجود الله . . ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا ، ولم يبق منها فى القرن العشرين الا عمـــا حكـــات تدل على العناد ولا تدل على الاخلاص ، وأقوال بعض (علمائهم) الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة الا بالاعتراف بالله ، تصور حقيقة موقـــف (علمهم) نفسه من هذه القضية ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنـــا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ممن موائد الاوربيـــين عازفين عن هذا الدين لأنه يثبت الغيب وهم علميون لا غيبيون) (١) .

(١) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١١٣١ ـ ٣١٢ طبعة ثانيه دار احياء التراث العربى بيروت .

لقد شهد الفلاسفة والمفكرون وكل من له عقل سليم وفكر مستقيم بأن الذى لا يقر بوجود الله هو ذلك الانسان الذى ألغى عقله ولم يستمع لنداء فطرة أو ضمير يقول الفيلسوف باسكال (١) (كل شيء غير الله لا يشفى لنا غليلا) .

ويقول شاتوبريان : لم يتجارأ على انكار الله غير الانسان ويقول لاتينيه الكلمة التى تجحد الخالق تحرق شفة المتلفظ بها ويقول بيلوتان : الله هو الأصل والمرجع لكل حياة .

وبعد فانا نختم هذا البحث بقوله تعالى (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى تؤفكون) (٢)

---

(١) انظر دائرة المعارف لفريد وجدى ج ١ ص ٤٨٢ وما بعدها .
(٢) فاطر : ٣ .

موقف الالحاد من الايمـــــان بوجود اللـــــه

ان كل الشواهد تشير الى وجود الله جل جلاله و تعترف بأنه جل وعلا نظم حركة هذا الكون بعد أن خلقه وأودع فيه ما به بقاؤه و حفظ وجوده .

ان وجود الله تعالى يقع فى كل قلب و يشغل كل عقل و يملأ كـل روح و يسرى فى الوجود البشرى كله .

ان الايمان بالله تعالى وبوجوده مغروز فى الفطرة الانسانية وبالرغم من هذا كله فان الملحدين ـ فى شتى صورتهم وعلى اختلاف نحلهم يقفون موقف الجحود و التنكر لخالق هذا العالم سبحانه وتعالى يقول ماركس زعيم الالحاد الشيوعى .

لا اله والحياة مادة .

و يقول لينين : نحن لا نؤمن بوجود الله .

و يقول : ليس صحيحا ان الله هو الذى ينظم الاكوان وانما الصحيح ان الله فكرة خرافية اختلقها الانسان ليبرر عجزه ولهذا فان كل شخـــص يدافع عن فكرة الله انما هو شخص جاهل و عاجز [1] واذا كان ماركس واتباعه ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى فهناك من لا يعترف بأن الله خلق هـذا

---

(١) ص ١٥ حركات و مذاهب فى ميزان الاسلام للاستاذ فتحى يكن مؤسسة الرسالة وانظر ص ٧٧ الاسلام و الشيوعية للدكتور عبد الحليم محمود ـ دار التراث العربى .

الكون بل انه يرى أن الصدفة وراء هذا الابداع والخلق لكل ما حولنا ومن حولنا .

ما هي الصدفة ؟ :

أن اصحاب الصدفة هؤلاء يقولون ان الاشياء والاكوان تم تكوينها على ماهي عليه من الجمال والابداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد والتدبير ولا بطريق الارادة والحكمة . انهم لا يعترفون بتدبير أو قصد او قدرة أو حكمة ويرون انه بمرور الزمن الطويل فان عناصر الاشياء قد تلاءمت وتناسبت وتكونت وأن الحياة وجدت خلية على وجه الارض وبمرور ملايين السنين اصبحت الحياة على هذه الصورة التي نراها من الروعة والابداع . ويشارك اصحاب الصدفة من يرجع خلق الكون الى الطبيعة أو المادة وعناصر تكوينها من البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة والمواد المركبة منها وهي الذرات المكونة من النوى المشتمل على نواة منه على بروتون ونيترون والكترون هذه العناصر من النوى والذرة والخصائص المشتملة عليها المادة اوجدت نفسها فكونت مايسمى بالطبيعة : انهم يؤمنون بكل شيء ما عدا الله الذي اوجد كل شيء والماديون اليوم هم سلالة ديمقريطس اليوناني فهو أول من قال : انه لا شيء موجود الا المادة ومن هنا فانهم لا يعترفون الا بالمحسوس المشاهد فقط .

لقد كان الفكر المادى موجودا عند الأمة العربية فى جاهليتها الاولى فكانوا ينظرون الى الطبيعة المادية على ان منها المبدأ واليهـــا المنتهى وكانوا يرددون شعارا يمثل فى قوة عقيدتهم الماديـــة لقد قالوا : ماهى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهـــر وقد صور القرآن الكريم عقيدتهم هذه خير تصوير عندما حكى عنهـم (وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهـــر وما لهم بذلك من علم بان هم الا يظنون)(١) .

ان الملحدين لا يخلو منهم زمان أو مكان يقول الامام الغزالـــى متحدثا عن طائفة منهم : الصنف الاول الدهريون وهم طائفة من الاقدمين : جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا ان العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه وبلا صانع ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا »(٢) .

---

(١) الجاثيه : ٢٤

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٠٥ للامام الغزالى تعليق الدكتور عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة .

الرد على الملحدين

ليس من هدفنا أن نطيل في الرد على الملحدين ونقد مزاعمهم بعد الادلة المتنوعة التى ذكرناها آنفا على وجود الله تعالى ، وانما نكتفى فقط بأن نقول لهؤلاء الملحدين القائلين بالصدفة أو غيرها : متى أقامت الصدفة قصرا أو خلقت بشرا سويا أو أبدعت حديقة فيحاء ، ثم أرأيتم أيها الملحدين انه لو جاء انسان بآلاف من حروف الطباعة أو بملايين منها وأخذ يحركها يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع وسنة بعد سنة أتراه يظفر منها - مصادفة - بتركيب لها هو كتاب من كتب الادب أو الفلسفة أو الرياضة .

انه كما يقول المستشرق - سانتلانا لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كدة الا على حروف واذا كان الامر كذلك فكيف يتصور كما يقول - سانتلانا - أيضا حدوث هذا الوجود (العالم) بما عليه من الاتقان والاحكام وتضافر الاجزاء وعجيب مناسباتها بعضها لبعض من حركات اتفاقيه في خلاء لانهاية له كما يقول الماديون) وهذا ما جعل سقراط فيلسوف اليونان الاشهر يقول :

" هذا العالم يظهر على النحو الذى لم يترك فيه شىء للمصادفة اطلاقا ومن بعد سقراط بعدة قرون جاء الدكتور " ا . ج كرونين " ليقول اذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه وضخامته وروعته لابد أن نفكر في اله خالق .

من ذا الذى يتطلع الى السماء فى ليلة صيف صافيه ، ويرى النجــوم اللانهائية تتألق بعيدا ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكــو ن وليدا لصدفة العمياء ؟ وعالمنا هذا وهو يدور فى الفضاء فى حركة دقيقـــه منتظمة وفصول متتابعة لا يمكن أن يكون مجرد كره من المادة خالية من الدلالة نزعت من الشمس والقيت فى الفضاء بلا معنى أو سبب ؟

انظر وابحث فى العالم واطرح كل ما قالته الكتب المقدسة وتتبع سيـــر الحياة فانك ستواجه لغزا غامضا وسرا عميقا ، فلا يمكن أن يكون هذا نشـــأ من العدم فلا شىء يخرج من لا شىء) .

اجل لا شىء يخرج من لا شىء انها حقيقة أجمعت عليها العقول السليمـــه التى حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة اذ كل مركب حادث وكـــل حادث مفتقر الى محدث أحدثه قطعا كما يقضى بذلك قانون العلة المسلم به من جميع العقلاء أيضا .

ان وجود مادة وحركة لها وهى طاقتها معلول فلا بد له اذن مــــــن علة اقتضت وجوده وهو الاله الازلى الذى ليس بمادة . اذ لو كان غير أزلـى لكان محدثا ولو كان محدثا لكان مادة ، والمادة ميته فكيف تخلق الأحياء ؟ ومن بديهيات العقول أن فاقد الشىء لا يعطيه : فكيف تخلق المادة هــذا العالم البديع الجميل ، يقول الامام الغزالى

ان العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ، فلابد أن يكون صانعه قادرا لأن من رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف ثم توهم صدور نسجه من ميت لا استطاعة له أو عن انسان لا قدرة له كان متخلفا عن غريزة العقل متحركا فى سلك أهل الغباوة والجهل .

ويقول الشيخ محمد الغزالى :

العالم وما فيه من سكون وحركة أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى ليس لشىء "ما" قدرة ذاتيه يستمدها من طبيعته المجرده . فاذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويدا رويدا لتستوى على سوقها فذلك بقدرة الله .

واذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن غادية رائحة لا تهدأ حتى تثور فكذلك لا تحسبن شيئا فى الكون قادرا بنفسه فكما أن القدرة أبدعته أولا من عدم فقد أودعت فيه من أسرارها وبثت فيه من آثارها ما يدل عليه ، ولكن الملحدين لا يقتنعون بكل هذا ويتمسكون بمزاعمهم الباطلة بل ويفرحون بذكر آلهتهم وصدق الله اذ يقول عنهم وعن امثالهم (واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون (١) انهم لا ينظرون فى نعم الله وآلائه ولا يتفكرون فى خلق الله وآياته بل يعرضوا عن هذا كله وصدق الله تبارك وتعالى فى تصوير واقعهم الأليم حيث يقول فى كتابه الكريم . (وكأى من آيه فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (٢)

---

(١) الزمر : ٤٥
(٢) يوسف : ١٠٥

الفلسفة الوجودية
أصولها وموقف الإسلام منها

لقد صارت فلسفة الوجود مشكلة تجاوزت أوربا إلى العالم. بل إن شرح هذه الفلسفة لمشكلة أخرى من الصعب أن يتحقق بشكل مرضى ...

وكلمة « وجود » بالمعنى الفلسفى الذى تستخدم به اليوم جاء ذكرها لأول مرة فيما كتبه كيركجورد . لكن هل نستطيع أن نسمى كيركجورد وجوديا أو أن ندرجه ضمن فلاسفة الوجود ؟

ولم يكن كيركجورد يود لنفسه أن يكون فيلسوفا ، وكره أكثر أن يكون فيلسوفا صاحب مذهب ...

وفى أيامنا هذه يعارض هايدجر ما يسميه هو نفسه « الفلسفة الوجودية »، كما يؤكد ياسبرز أن الوجودية تعنى موت فلسفة الوجود !

وإذن يبدو أننا لو قصرنا استخدام تعبير الوجودية على من استخدمها من فلاسفتها ، وخاصة فلاسفة مـــا يمكن أن نسميه مدرسة باريس الفلسفية وهم: سارتر وسيمون دى بوفوار وميرلو بونتى ، لو فعلنا ذلك لكنا على صواب فيما يبدو .

لـكنا للآن لم نحدد معنى الوجودية ، ونواجه صعوبه أخرى مصدرها ما نتحدث به عن الفلسفة الوجودية ، مما يسلكه هايدجر فى مجال « غير الحقيقى » . فنحن نتحدث عن فلسفة الوجود وهو أمر كان يحب هايدجر ، وسارتر كذلك ، أن يتجنباه ، ما دمنا مهتمين بمشاكل تتصل تماما بالتأمل الفردى ولا يمكن أن تكون موضوعات نقاش .

ومع ذلك فنحن قد اجتمعنا هنا اليوم لنناقشها ...

ولنبدأ بأن نقابل بين فلسفة الوجود والمفاهيم الفلسفية التقليدية التى نجدها عند أفلاطون وسبينوزا وهيجل مثلا .

إن الفلسفة عند أفلاطون هى البحث عن الماهية ، لأن الماهية ثابتة لا تتغير .

أما سبينوزا فكان يرى أن الفلسفة غايتها الأبدية والفضيلة .

كان الفيلسوف عموما يتمنى لو يرق على عالم الصيرورة ويعثر على حقيقة ، أبدية لها صفة المالية .

ولم يكن الفيلسوف عموما يستعين إلا بالعقل .

وربما جاز لنا أن نقول إن آخر هؤلاء الفلاسفة كان هيجل ، فقد وصل بهذا الاتجاه إلى مداه ، وحاول بالعقل وحده أن يصل إلى حقيقة هذا العالم .

ومع ذلك فإن هيجل اختلف عن الآخرين بإصراره على فكرة الصيرورة ، وبما أضفاه عليها من اهتمام انحرف به عن طريق أفلاطون وديكارت وسبينوزا وغيرهم .

ويؤكد لنا هيجل أن أفكارنا وأحاسيسنا ليس لها من معنى إلا لأن كل فكرة وكل إحساس يرتبط بشخصيتنا التي ليس لها معنى هي الأخرى إلا لأنها تتواجد في تاريخ معين وفي حالة معينة لحظة محددة من لحظات تطور الفكرة الكونية . ولكي نفهم كل ما يحدث في حياتنا الباطنة لا بد أن نصل إلى الكلية التي هي ذاتنا ، ومنها إلى الكلية الأكبر التي هي الجنس البشري ، ثم أخيراً نصل إلى الكلية التي هي الفكرة المطلقة .

وهذا التصور الذي تصوره هيجل هو الذي خرج كير كجورد ، الذي يمكننا أن نلقبه بمؤسس فلسفة الوجود ، خرج ليناقضه .

لقد عارض كير كجورد موضوعية هيجل وحماسه من أجل الكلية ، وقال بالذاتية ، وأن الحقيقة فى الذاتية ، وأن الوجود الحقيقى لا يمكن أن يتحقق إلا بتكثيف الانفعال ، وأن اعتبار الإنسان كجزء من كل يلاشيه ويلغى وجوده . وقال كير كجورد « أستطيع أن أقول إننى اللحظة التى تعيشها ذاتى ، وأرفض أن أكون فقرة فى نظام » .

ويقف كير كجورد كمفكر ذاتى يقابل الفكر الموضوعى ، أو يقف ، كما يصف هو نفسه ، مفرداً متوحداً .

ويقول كير كجورد إننا بما كدسنا من معرفة قد نسينا معنى أن نوجد .

وكان كير كجورد يكره كراهية ما بعدها كراهية كل من يتصدى لشرح كلامه ، فأعدى أعدائه هم الشراح وأساتذة الجامعات .

والفرد الموجود كما يصفه كير كجورد هو ...

أولا : الفرد الذى يعقد مع ذاته علاقات لا نهائية ، ويصب عليها وعلى مصيره اهتماما لا نهائيا ...

وهو ثانيا : الفرد الموجود الذى يحس بنفسه دائما مشروعاً. واستخدم كير كجورد هذه الفكرة عن المسيحية وقال : إن الإنسان لا يكون مسيحيا لكنه يصير مسيحيا ، المسألة هنا مسألة مثابرة وجهد مبذول ...

وهو ثالثا : ممتلىء حماساً ، وهو إنسان ملهم ، وهو نوع من التجسيد للانهائى فى النهائى ...

وهذا الحماس الذى يملأ الموجود (وهو الصفة الرابعة التى يتصف بها) هو ما يسميه كير كجورد « الحماس للحرية » ...

وتحتل فكرتا الاختيار والتقرير أهمية بالغة فى فلسفة كير كجورد ، فكل قرار عبارة عن مخاطرة ، لأن الموجود يحس بنفسه محاطا وممتلئا بعدم اليقين ، ومع ذلك فهو يقرر .

ولنلاحظ أن ما قلناه تواً عن طريقة تفكير ووجود الموجود يكشف عن موضوع فكرة : اللانهائى ... لأن الإنسان بهذا الحماس اللانهائى وحده يمكنه أن يرجو أن يحقق وصاله باللانهائى ، ومن ثم كانت الغاية هى الكيف الذى يتوسل به لذلك . وما دمنا

على اتصال بهذا اللانهائى فإن قراراتنا ستكون دائما قرارات تتراوح بين الكل أو اللاشىء ، مثلما كانت قرارات « براند » بطل مسرحية إبسن .

وسوف يسعى الموجود سعيا حثيثا تحت تأثير هذا الحماس وهذه القرارات إلى تبسيط نفسه ، وإلى أن يعود إلى التجربة الأصيلة والحقيقية .

ولقد عالجنا حتى الآن الناحية الذاتية فى فلسفة كيركجورد ، وكان كيركجورد وغيره من الفلاسفة الذين سنعالج فلسفاتهم هنا ، يعتقد أنه لا سبيل لوجودى الذاتى دون أن يكون مرتبطا بوجود ما . وهو يكتب فى يومياته سنة ١٨٥٤ أن « وجود المسيحى هو ارتباطه بالوجود » ، بمعنى أنه ينبغى أن يحس الموجود المسيحى بنفسه دوما فى حضرة الله ، كما ينبغى أن تنفذ فكرة الوجود فى مواجهة الله إلى التفكير المسيحى . لكننا إذ نحس بأنفسنا أمام الله لابد أن نحس بأنفسنا كخطاة ، ومن ثم تكون الخطيئة ، والوعى بها خصوصا ، هما وسيلتانا للدخول فى الحياة الدينية . فإذا نفذنا إلى المجال الدينى وصرنا على درجة نحس معها أننا ما نزال أمامنا طريق نسير عليه

وتتقدم فيها في رحلة روحية تبدأ بالدين في مستواه الأدنى الذى يساكن فيه الفلسفة ، وتنتهى بالدين في أعلى مراحله .

والدين المسيحى في أعلى مراحله يلاشى العقل ، ويؤكد التجسيد من خلال فكرة ميلاد « الكائن الأبدى » في مكان ما وفي لحظة ما من التاريخ .

وإذن فالوجود الفرد سيكون هو من يملك هذا الإحساس الكثيف ، لأنه مرتبط بشيء خارج نفسه ، ولسوف يعانى نوعا من الصلب للإدراك ، ولسوف يكون قلقا بالضرورة ومهتما بوجوده ، لأن سرمدية الآلام ، أو سرمدية الأفراح ، تعتمد على علاقته بالله ، ومن ثم سيكون على علاقة بما يسميه كيركجورد « الآخر المطلق » : إله يحمى لـكنه كذلك لا يلقى بالا للفرد ، وهو حب لا نهائى يحيط بنا ويحتضننا إليه لا شك في ذلك ، لـكنا نحس أنه ليس أنفسنا ، لأننا في أعماق فرديتنا وزللنا نناقضه .

ولقد رأينا أن كيركجورد يعارض هيجل بطريقين .

« الأول تأكيده على الذاتية ...

والثانى الأهمية التى يضفيها على كثافة الإحساس الفردى .»

وينبغي أن نضيف إلى هاتين السمتين إصرار كيركجورد على فكرة الممكن ، لأن هيجل كان يرى العالم على أنه تكشف الفكرة الأبدية بالضرورة ، كما كان يرى فى الحرية أنها الضرورة المدركة.

أما كيركجورد فكان يرى عكس ذلك، أنه توجد ممكنات واقعية وأية فلسفة تنكر هذه الممكنات هى فلسفة مستعبدة تعيش فى خشية .

وعلاوة على ذلك فإن فكرة الممكن ترتبط بفكرة الزمن ، وقد يجوز لنا أن نقابل بين الزمن عند كيركجورد بما يتسم به من انقطاعات وقفزات ، وبين الزمن عند هيجل بتكشفه المنطقى ، تقابلا يشبه التقابل بين الديالكتيك الذاتى الانفعالى عند كيركجورد وبين الديالكتيك عند هيجل .

ومن الطبيعى أن تثير أفكار كيركجورد أسئلة كثيرة :

من ناحية ، ألا يميل كيركجورد إلى عقلنة وتفسير التناقض بأن يصوره على أنه الوحدة بين المتناهى واللامتناهى ؟

ومع أنه يحاول أن يفضح عجز العقل ، ألا يقال بمحاولته هذه نفسها من شأن محاولته الأخرى التى يفضح بها عجز العقل ؟

ومن الناحية الأخرى أيقن كيركجورد نفسه أن قدوم المسيح إلى العالم يشكل ذرى التناقض الذى كان لايمكن أن يتحقق إن لم يتصور أحد قدوم الله إلى العالم .

يقول كيركجورد : إننى كلما فكرت فى هذا السؤال ضلت روحى الطريق ..

وإذن فلنضف إلى ماسبق أن هذا التناقض لايوجد إلا لمن يعيش على الأرض ، بمعنى أن المؤمنين الذين أوتوا بصيرة الحقيقة ، يختفى التناقض بالنسبة لهم ...

والخلاصة أن هذا البناء كله لا يوجد إلا من زاوية رؤية «مرتبطة بالأرض» . لكن ربما كانت وجهة النظر هذه ليست وجهة نظر معارضة معارضة حقيقية ، بل إنه ليبدو من العسير الحكم عما إذا كانت هذه الملحوظات وجهات نظر معارضة أم أن المقصود بها التركيز على التناقض بحيث يقوى تصوير مفهوم كيركجورد .

ونستطيع أن نقول نفس الشيء عما تثيره العلاقات بين الذاتية والتاريخ (إن كثافة الإحساس الذاتى يقوم متناقضاً على أسس من الواقع الموضوعى التاريخى) وبين السرمدية والتاريخ (لأنه لو

كانت لحظة التجسيد لحظة سرمدية فإن التناقض يهدده التلاشى) من استفسارات .

ومما لاشك فيه أننا نستطيع أن نتتبع تاريخ فلسفة الوجود لحتى الفيلسوف شيلنج الذى عرفه كيركجورد ، وحتى معركته التى شنها قرب نهاية حياته على هيجل .

لقد اعترض شيلنج على ماأسماه « فلسفة هيجل الوضعية « أو تأكيده على العرضية تأكيداً غير مفهوم » .

ونستطيع أن نقول إننا لنجد فى كتابات هيجل الشاب سمات لاتتنافى مع تفكير كيركجورد ، لكنا ينبغى أن لانولى هيجل الشاب قيمة تاريخية كبيرة .

وعلاوة على ذلك فإن مايتناثر فى فلسفة هيجل من عناصر شبه كيركجوردية ليفقد وزنه إذا ماعرفنا أنها عناصر لا تصدر عن الاحتجاج الذاتى الذى كان يصدر عنه فكر كيركجورد .

ويمكننا أكثر من ذلك أن نتتبع فلسفة الوجود حتى « كانت » الذى قال بأننا لايمكن أن ننفذ إلى الوجود عن طريق الماهية، معارضاً بذلك الدليل الأنطولوجى .

خداع هذه الفلسفات ؟

لقد خدعت كل فلسفة من هؤلاء جميع الناس بمظهرها ثم لما تكشف حقيقتها وتبين هدفها أهملها وأنكرها أقرب الناس إليها :

لقد دعت الماركسية إلى العدل الإجتماعى ، ثم تكشف هدفها حينما تبين أنها ترمى إلى هدم الدين والأخلاق .

ودعت الفرويدية إلى حل العقد النفسية عن طريق الغريزة ، ثم تبين أنها ترمى إلى تدمير المجتمعات ونشر الإنحلال بين أفرده .

ودعت الوجودية إلى كرامة الفرد وتحقيق وجود ذاته ثم جنحت به إلى حيوانية مقيتة تصيب الفرد والجماعة بالقنوط والإنحلال والضياع :

٦ - أشار الباحثون إلى أن الوجودية قد قدمت إلى الفكر البشرى فى العصر الحديث أزمات « الغربة والغثيان والعبث والتمرد واللامعقول » وأشار « كولن ولسن » فى كتابه « اللامنتمى » إلى أن الغربة مرض متصل بتصدع الذات أو انشقاقها نتيجة لعدم توائمها أو انسجامها مع المجتمع الذى تعيش فيه ، وأن التصدع بين الذات والجماعة مشكلة اجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه ، وقال : إن الرومى القديم برغم حيرته وشكه فى سبيل العثور على الحقيقة لم يفقد الإيمان بها وهو لم ييأس اليأس التام .

أما غريب العصر فهو لا يفهم ما يعنيه الناس بالحقيقة ، فهو إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها ، فالعالم فى رأيه عالم مفتقد للحقيقة عالم زائف ، قائم على اللامعقول والفوضى . وهما وحدهما فى نظره هما الحقيقة ، ويعتقد كثيرون أن العقل وحده ليس بقادر - إذا عمل منفرداً - على بلوغ

الحقيقة وراء هذا العالم» ومن هنا جاءت الغربة التي هي أزمة الإنسان الذى فقد الإيمان بالله ، ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص ، ولكن «كولن ولسن» عندما يصل إلى هذه النقطة الصحيحة يعجز عن الإنتقال منها إلى الحل الصحيح ، وهو إلتماس الدين الحق ، فإنه مازال يعيش فى دعوات المتصوفة الهنود ، حيث يدعو إلى تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي .

أما المسلمون : فيعرفون الطريق الصحيح ، وهو الإيمان بالله والتماس رحمته فليس للإنسان فى حالة الغربة أو التمزق أو الخوف إلا ملجأ واحد وسند واحد هو الله تعالى ، وبالإتجاه إليه يجد الإنسان السلام والأمن والسكينة ، ولكن هذا الطريق مازال بعيداً عن أصحاب هذه الأزمة فهم لا يرونه ، ذلك أن الإسلام يدعو إلى أسلوب أشد عمقاً من الرؤيا والكشف :

ألا وهو النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ذاكراً عظمة صنع الله وجلال قدرته تعالى ، وهذه وحدها هى القوة التى تملأ النفس باليقين وتحقق الوحدة بين الإنسان والوجود .

ويقول «كولن ولسن» : إن الفكر العقلى المجرد لا يحل أزمة «الغريب» وهذا حق ، وأن العاطفة الدينية هى التى تستطيع أن تحل أزمته الطاحنة وهذا أيضاً حق ، ولكن كيف السبيل إلى هذه العاطفة إلا بإيمان صادق راسخ بالله رب العالمين خالق كل شيء ، وخالق الإنسان وواهب الحياة ؟

ويدعو «كولن ولسن» : إلى حلول جزئية - متأثراً بمعتقده المسيحي : فيقول إن تحرير الإنسان يجب أن يبدأ أولاً بتحريره من «فكرة الخطيئة الأولى» التى تسيطر على الإنسان الغربي ، والتى تقف حائلاً بينه وبين رؤية الحقيقة .

ويقول : إن هذا جزء من الحرية الكاملة التي يعطيها الدين الحق للإنسان والتي تجعله يؤمن أولا : بأن لوجوده رسالة وغاية وهدف وأمانه ومسئولية ، وأن الحياة ليست عبثا ، وليست لعبة وليست صدفة بحال .

فالايمان بالله الواحد الخالق المدبر الذي إليه يرجع الأمر كله هو المصدر الوحيد للأمن والسكينة ، وسوف تفشل كل هذه المحاولات الجزئية أو الحلول التي تستمد مصادرها من فلسفات باطنية أو هندية .

وعلى الإنسان الحديث أن يسلم وجهه لله أولا ، ويعتقد بأنه الخالق وبأنه صاحب الارادة العليا ، وأنه خلق الانسان لغاية ورسم له منهجا ، فإذا ما التمس الإنسان الإنسان غايته ونهجه ، طابت نفسه واستقرت وبدت الحياة تأخذ طابعها العادي المستقر المليء بالطمأنينة والسكينة .

أما إذا أصر : الإنسان الحديث بأنه سيد نفسه وتمرد على خالقه وولي نعمته وأصر على أنه القادر على ادارة الحياة عازما بكل قوة طليا ساخرا من الوصاية والمنهج الرباني فإنه سوف يلقى هذا الألم الذي يسحقه سحقا دون أن يقر له قرار .

٧ - إن أخطر ما تقدمه الوجودية للإنسان المعاصر هو إنكار محصول البشرية من التجارب والقيم ، فهي لا تأبه به ، بل تتـنادى بضرورة تجاهله وأن يبدأ الإنسان من جديد كالانسان البدائي ، فضلا عن احتقار الوجودية للعلم وإنكار قيمته . وإن أخطر وأسوأ ما يتعارض مع طبيعة الحياة ومع فطرة الانسان : شجبها للدين وأنكار الوجود الإلهي حيث لا تجد لها أي قاعدة تلتقي مع حقيقة الإنسان ووجوده وذاته . ثم هي تحيل الفرد منعزلا عن الوجود العام لا جزءا منه .

أما الأخلاق الوجودية فهى الأخلاق المريضة القائمة على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة فى الموت والغموض والأنانية .

ويرجع الباحثون ذلك كله إلى عجز الفكر الدينى الغربى عن أن يقدم ترضية كافية إلى مطالب العقل الذى يتوق إلى فهم كل شيء ، حيث تصطدم بعض هذه المفاهيم مع العقل الذى لم يكن معدا لقبولها .

كذلك فإن العلم قد سقط بجميع وسائله من البحث والدراسة إزاء الأسئلة المطروحة فى وجهه ، وعندما سقط العلم عن إرضاء النفس البشرية : جاءت الوجودية لتعترف بعجز الإنسان عن فهم الحياة ومعقوليتها . فساقت الناس مرة أخرى إلى تعمق الشك والقلق وتوكيده .

ومعنى هذا : أن الوجودية ليست حلا ، وإنما هى اعتراف باليأس وتعبير عن الفراغ الروحى الرهيب وذلك نتيجة أمرين :

١ - الانفصام بين الروح والمادة .
٢ - الانشطار بين الدنيا والاخرة .

وفى كل ما تعرض الوجودية لا نجد أكثر حكمة وعلاجا وتوسطا من الاسلام الحنيف ، حيث لا تتصارع فيه إرادة الإنسان سواء فى علاقته مع نفسه أو مع غيره ، ولا تتعارض فيه الروح والمادة ، فهو قد مزجهما وجمع بينهما بحكمة ومعقولية وجاء دينا وسطا بين الأديان السماوية جميعا فإذا كانت النصرانية رهبانية وروحية محضة .
واليهودية دينوية محضة .

فإن الإسلام قد جاء مكملا وجامعا لكل من المادة والروح معا فى تناسق

طيب محبوب ، فهو يدعو إلى الآخرة والعبادة وصفاء القلب والروح ولكنه فى الوقت نفسه لا يهمل شأن الدنيا ولا يدعو إلى تركها كلها بل أخذ الطيب المعقول منها فيقول جل شأنه ، [1]

فى شأن الآخرة بروحانياتها وشفافيتها ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، وفى شأن الدنيا ـ ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين »[2] .

هذا هو التوازن الصحيح من المنطلق الدينى الحق من العقيدة الإسلامية باعتبارها الدين المعترف به الذى نادى به سبحانه وتعالى منذ رسالة محمد عليه الصلاة والسلام حيث قال : إن الدين عند الله الإسلام » .

فالإنسان فى الاسلام ليس هو الموجود الذى ينبع منه كل شىء ، بل هو جزء من الكون ، متوازن مع كل القوى نفسيا واجتماعيا واقتصاديا على أساس الاعتدال ، والإنسان فى الإسلام يعتمد على العقل تحدوه قوة الإيمان فلا صراع عنده بين المادة والروح ، أو الجسد والعقل .

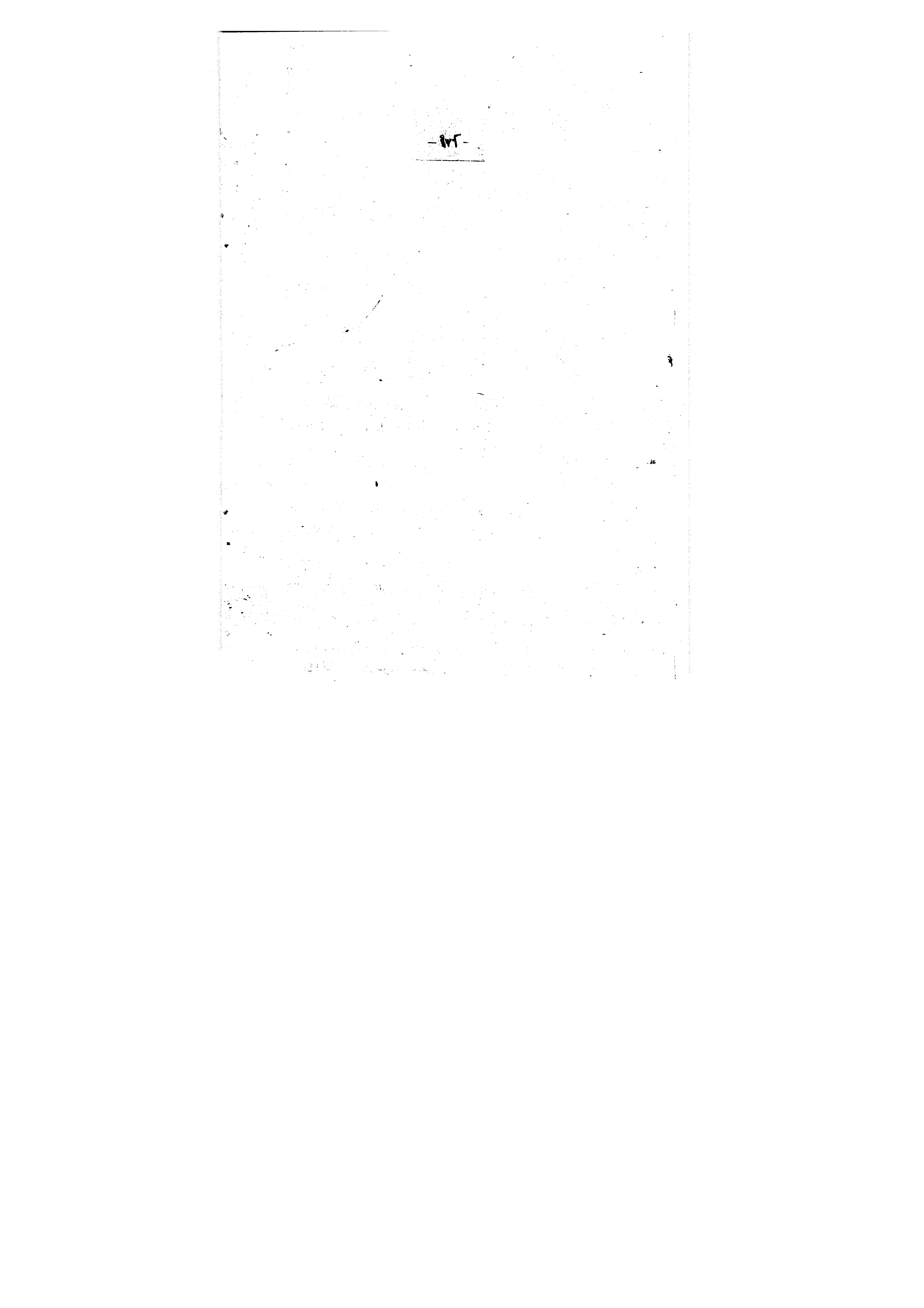
ويعالج الإسلام : قضايا الإنسان معالجة متوازنة (فكرية ونفسية) دونما طغيان لقيمة على قيمة ، أو تراجع لقيمة أمام أخرى .

ولقد جاء الاسلام كنصر ساحق للانسان على آلامه ، وكثورة نفسية عظمى حققت له توحده الذاتى ، وشيدت أمامه أروع أمل فى الخلود المطلق فى النعيم .

---

(١) انظر ص ١٧ وما بعدها د. طلعت غنام : الوجودية بين اليأس والعدم - عالم الكتب

(٢) الاية ٧٧ من سورة القصص .



فهرس الكتاب